الإهداء

إلى ابني أيمن بدءا و منتهى .

إلى والديّ الأكرمين اعترافا بفضلهما.

إلى كلّ من علّمني فأحسن تعليمي.

إلى كلّ من علّمتهم فأفنيت فيهم جهدي ولا أزال.

إلى كلّ من يلتمس إلى النور مخرجا كفرا بالظلام وتأسيسا لربيعه الخاص.

١

على سفح جبل باذخ يطاول عنان السماء ,نباته شوكيّ كالإبر تغطي تربته شتى أنواع الحجارة , كبيرها وصغيرها ,ليّنها وصلبها يقع بيت وضاح محاذيا لوادي سحيقٌ جفت مياهه وأضحى مرتعا للحيات والسّباع وبين كهوف ومغاور تعشّش فيها النسور .ذاك قدر وضاح نشأ في عائلة أعدمها الفقر وتلاعبت بها متغيّرات الواقع .

كان أبوه يمتلك بضع شويهات منها يعيل أبناءه وبهنّ يصارع الحياة مصارعة الأبطال. كلّما حاصرته الصعاب تذكر أنّه صاحب رسالة لا مناص له من تأديتها.

بلغ وضاح السادسة من عمره وشوقه إلى مقاعد الدراسة عارمٌ . يحدوه أمل في الالتحاق بفضاء جديد ينسيه بعضا من قساوة الطبيعة التي دأب على الحياة فيها وخبر عسرها. فاكتسب رجولة لم يكتسبها ممّن هم في مثل سنه .

كان تلميذا مجتهدا خلوقا رصينا . لا ينبس ببنت شفة إلّا إذا توجّه إليه المعلم بالسؤال. فكان حاضر الجواب فطنا. كان المسكين يتحرجّ من الخروج إلى السبورة لتدوين إجابته التي لم يهتد إليها غيره من الرفاق. أشدّ ما كان يحرجه ثيابه الرثة المتخرقة. فهو على صغر سنه يدرك أنّ الفقر ليس عيبا وأنّ الاحتياج دافع نحو مصارعة الحياة ومعاركة الوجود بالشّكل الذي به يتحقق .

مرّت سنته الدراسية الأولى وقد أثبت فطنة وذكاء وقادا. كان أيام تفوّقه لا يجد من يشاطره الفرحة. فأبوه شغلته الحياة بهمومها. أمّا أمُّه فقد كانت تشتغل بالضيعات المجاورة فتخرج في الهزيع الأخير من الليل ولا تعود إلاّ عندما يرخي الظلام سدوله . هكذا هم الأغنياء أصحاب الضيعات يستغلون المحتاج ويستنزفون دماءه من أجل ثمن بخس , دراهم معدودات .

تضاعفت مسؤولية الصبيّ على نعومة أظافره فكان يعود من المدرسة التي تبتعد عنْ بيته أميالا ليتولى العناية بإخوته. و حالما تعود أمه منهكة , خائرة القوى ينكبّ على مراجعة دروسه تحت ضوء فانوس زيتي شاحب معلقّ على جدار البيت.

يا لها من حياة ألقت بثقلها على هذا الفتى الغضّ فأذاقته مرارة الحنظل ولم ير من وجهها إلا عبوسا وكدراً!

مرتّ سنوات التعليم الأولى. وعانق وضاح النجاح بتفوق. كان يذكر أن أباه فرح بنجاحه الفرح كلّه. يومها ذبح ديك دجاجاته . فكيف له أن يواري غبطته وابنه البكر سيلتحق بالمدينة لينهل من منابع العلْمِ؟

عندما عسعس الليل نام كل أفراد العائلة ما عدا أبا وضاح الذيّ استبدت به الهواجس. ردّد في قرارة نفسه :" كيف لي أن أسدّد مصاريف الدراسة وأين أنا من هذا الحمْلِ وقدْ آسرني العوزُ" ؟. إني لأرى في انقطاعه عن التعلّمِ وبقائه إلى جانبي عيْن الحكمة .فلِمَ التّعبُ؟

لكنه سرعان ما أنكر ما قاله واستدرك هاتفا :"لن أجهض فرحة ابني البكر . حريّ بي ألّا أجعله فريسة للجهل كما كنت أنا ضحية تقصير والدي رحمه الله ".

٢

مرت صائفة ليست كغيرها متباطئة ثقيلة ثقل هموم الدنيا وكوابيسها وحلّ العام الدراسي فحزم وضاح أمتعته وامتطى الحمار وراء والده قاصدا المدينة . كان ينظر إلى الجبل , إلى الوادي , إلى بيته المتواضع نظرة المودّع. فأضحى كلُّ شيء ذا قيمة وأمسى المكان الذي طالما أرهقه وتبرّم منه جذّابا على نفوره ,فهوعلى بؤسه جعل منه رجلا قبل أوانه .

وصل الأب وابنه إلى مشارف المدينة . بدت له عماراتها شاهقة تناطح السحاب. أنهجها تتسع أحيانا وتضيق , دكاكين ومغازات تُعرض فيها شتى أنواع الملابس وآخر صيحات الموضة . كان ينظر إليها بشغف وفي قرارة نفسه تراوده أسئلة محرقة. وتعصف به رياح الحيرة : "هل أنا إلّا بشر شقي ؟ هل أنا إلّا بعضُ إنسان شتّته الفقر فألبسه لبوس الحرمان ورداء الفاقة وقناع البؤس ؟

يهتف به صوت الأب قاطعا تواتر تأملاته :

- يا وضاح هل أعجبتك المدينة ؟

سؤال ما كان يتوقعه الصبيّ. كان ينتظر أن يخيّره أبوه بين المعروضات ليشتري له منها ما حُرمه فيعوّض له بعضا من

سنوات الحرمان. لكنه يعلم علم اليقين أن أباه يواري حسرة دفينة وألما كبيرا لعجزه عن اقتناء بعض ما يُعرض أمام عيْنيْ وضاح البريئتين . تلك هي الحقيقة المرة .

تنهّد تنهدة عميقة كأنّها زفير جهنم وأردف قائلا :

- بنيّ: إنّ العين بصيرة واليد قصيرة. ومن المحال دوام ذات الحال.لعلَّ القادم يكون أفضل .

أحسّ وضاح بتضاعف المسؤولية. فتسلّح بإرادة قوية. وعقد العزم على الاجتهاد والبذل عساه يعوّض لعائلته البائسة بعضا ممّن سلبته إيّاها الأيام والليالي .

وصل الطفل إلى باب المعهد على ظهر الحمار. وقد بلغ منه الحياء مبلغه . حمار أبيه هو الدابة الوحيدة في زخم حياة المدينة . ترجّل الأب بعدما شدّ وثاق الحمار إلى جذع شجرة وارفة ظلالها , ممتدة أغصانها. وتبعه وضاح بخطى بطيئة متثاقلة . دخلا إدارة المعهد وأوصى به خيرا وعاد أدراجه .

التحق الصبيّ بالفصل. فرمقته نظرات بقية التلاميذ . واجهها بخاطر كسير. فهو يعلم أنّ ملابسه وهيأته توحيان بالفقر والعوز. جلس يتابع الدرس بشغف واهتمام . كلّما سأل الأستاذ كان وضاح حاضر البديهة , سريع الإجابة .كان يحمل عبء الحياة مذ كان صغيرا يرعى شياه أبيه متحدّيا عنت الطبيعة وقساوتها. فاكتسب في صغره ما لم يكتسبه بعضُ رجال المدينة. وعادت به الذكرى إلى أيام خلت عندما كان يُلاعب

أخاه في الوادي السحيق فلدغته أفعى أردته بلا حراك . حمله وهرول إلى البيت مسرعا علّه يجد أباه الذي يضرب في فجاج الأرض يسعى دأبُه كلّ عطلة حين ينوبه وضاح في رعي الأغنام. أو أمّه الهائمة على وجهها والتي تشتغل في الحقول المجاورة . لم يجد بالبيت أحداً. صاح وانتفض ثم سكب الماء على جسد أخيه الغضّ. وقد تسّربت البرودة إلى أطرافه وجسده. وعلتْه زرقة داكنة.لم يكن وضاح يعرف عن الموت شيئا سوى بعض حكايا الخيال التي كانت أمّه ترويها . وهاهو يعيشها واقعا حيا أمام عينيه . لقد فتك الموت بأخيه يحيا. اسم اختارته له أمّه تخليدا لذكْرى أبيها الذي قضى في الحرب التّحريرية . كان مجاهدا مخلصا . مات ميتة الأبطال صمودا وثباتا ومقارعة للعدو الغاصب.

أسمتْه يحيا ولم يحْيَ . لم يدرك بعد معنى الحياة. اختطفته يد المنون. وغيّبت ابتسامته البريئة ونظرته الوديعة .

تلك هي الموت تأتي بغتة فتعبث بسكينة البشر. شعر وضاح إزاءها بكره بغيض . فقد انتزعت منه أخا وبترت له عضُدا .

إنها الذكرى ووجعها.وهو الماضي وألمه. سرعان ما وارى وضاح دمعته في مقلته. وعاد بذاكرته إلى قاعة الدرس. هذه الذكرى الدفينة لن تزيده إلاّ إصْرارا على المضيّ قدما ونحْت ما هدّمته الأيام .

حان وقت الوجبة بمطعم المعهد . اِصْطفّ التلاميذ منتظرين دخولهم لتناول الغداء. دخل الصبي المطعم فذهل عندما رأى

طاولة الأكل على بساطتها : مفتّحات ووجبة رئيسية تليها بعض الغلال . فراودته الذكرى من جديد .اخوته في القرية يكتفون بما تيّسر ممّا يسدّ رمقهم ويقيمُ أودهم. لم يتمتّع بوجبته تمتع أصحابه. وتوقف عن الأكل . بعد لحظات التحق بقاعة المراجعة شارد الذهن , مشتّت الفكر. لكن لا ضير فسيتأقلم تدريجيا مع حياة جديدة لم يألفها بكل تفاصيلها وجزئياتها .

٣

أخذ كتابه وطفق يذاكر . بهت للضوء المنبعث من القاعة . و تذكّر ضوء مصباحه الشّاحب في البيت. وكيف كان ينطفئ لأكثر من مرّة حين تعصف الذّاريات أو ينفذ وقود الفانوس .

كانت تلك الومضات حافزا دفعه نحو توطين الذات على الفعل والكد والوقوف بثبات وعدم الانحناء أمام نائبات الزمان وصروفه. رنّ الجرس . لقد حان وقت النوم بعد يوم قضّاه متنقلا من الريف إلى المدينة وفي قاعة الدرس متمعّنا متابعا رغم ما انتابه أحْيانا من شرود .

صعد واستلقى على سريره. لقد كان في بيته يفترش حصير حلفاء يشترك فيه مع كل أفراد عائلته فيغمرهم بدفئه رغم برودة الطقس .استسلم للنوم ولم يستفق إلّا على صوت أمه تناديه :

- وضّاح : قم يا بنيّ لترعى الأغنام قبيْل شروق شمس الصيف المحرقة .هيا بنيّ كفاك نوما .ألم تسمع غثاء الخرفان تصيح تبغي الكلأً؟

التفت يمينا وشمالا فلم ير شيئا. ولم يسمع غير شخير يعلو مِنْ أنحاء مِنَ المبيت متفرقة. إنها أضغاث أحلام. ما كان صوت الأم إلاّ حلما بديعا وهمسا عذبا تطرب له نفسه. لا يزال الليل ممتدّا جاثما ." عُدْ إلى نومك يا وضاح " قالها في صمت .

حاول. لكن صورة أمه فكّت تلامس جفونه. وذكرى العائلة عبثت بسكينة الليل.إنها ليلته الأولى التي لم يُصْغ فيها إلى أنين الرياح وهي تعصف محركة شجرة السرو المحاذية للبيت. ولا إلى نباح الكلب الرّابض قرب باب حظيرة الأغنام . ولا إلى عواء الذئاب المنبعث من أعماق الوادي . لقد حنّ وضاح إلى أحضان الطبيعة القاسية. راودته الذكرى مجدّدا. حنّ إلى الليل البهيم بقتامته وظلمته الحالكة وإلى حكايات أمه الشيقة .

كانت تلك الليلة ليست كسابقاتها من الليالي . ليلة فارقة مفصليّة في حياة الصبي . ما عليه إلا التأقلم معها وأنْ لا يقف عند أعتاب ماض لم يعد له .بل عليه أن ينغرس في الواقع ماثلا بجسده في حُرمة العالم , مغالبا , معاندا , مكابرا حتى يتسنّى له تخطي مراحل الحياة.

مرّ الأسبوع الأول وانتظر أباه لكنه لم يأت . اِشرأبّ عنقه وهو يتابع بنظراته المارّة عساه يلمح حمارهم , ذلك الحمار

الذي كان يمثل مدعاة للخجل أضحى بالنسبة إليه أملا ينشد رؤيته فهو راحلته إلى البيت .

لم يتعوّد الصبي على مثل هذا الغياب من قبلُ . لكن ما عساه يفعل . كان صديقه أحمد ينظر إليه نظرة المتسائل. صمت برهة من الزمن ثم قال :

- يا وضاح: ألمح على محيّاك علامات حيرة . فما الأمر ؟

ردّ بصوت خافت وتلعثم بيّن:

- كنت أنتظر قدوم أبي حتى نعود سويّا إلى البيت غير أنه لم يأت .

- تعال معي إلى بيتنا. إنه يقع وسط المدينة, قريب من هنا وقد تكون مناسبة للّهو واللعب ونسيان أتعاب الأسبوع .

ردّ وضاح ردّ الواثق :

- ما كنت قاطعا أمرا دون إذن أبي. لك منّي كلّ الشكر صديقي. أعتذر عن الذهاب معك.

غادر أحمد وترك وضاحا بساحة المعهد .أطرق الصغير مفكرا تعلو محياه علامات الحيرة والاندهاش . راودته شكوك عن غياب الأب أطفأها بالصبر وأذهبها بالثّبات .

داهمته الحيرة ولم يجد من الأجوبة ما يشفي غليله. عاد إلى قاعة المراجعة وطفق يتأمل كتابا يلتهم صفحاته التهاما.

اِستوقفته جملةٌ ظلّ يردّدها. فيتردّد صداها في نفسه كما وقْع الصخّر يرتطم بقاع الأرض " ألا انهضْ وسْر في سبيل الحياة فمن نام لمْ تنتظره الحياة ".

أدرك الصبيّ رغم حداثة سنّه أن النّوم يفصل الإنسان عن الحياة .وأنّ النهوض يقرّبه منها . اِسترجع أنشطة عائلته اليومية. فتعمّق في ذهنه معنى النهوض . كانت أمه تغادر مضجعها منذ ساعات الفجر الأولى لتعتني بشؤون بيتها .ثم تسعى إلى العمل والشّمس لمّا تشرق بعد.وكذلك شأن أبيه . عهده قليل النوم , دائم الحركة.أدرك وضاح أنّ الحياة تُصنع ولا توهب .فهي كسبٌ يُحصّلُ باستمرار وهي سعي شقيّ .تلك هي الحياة لا تنتظر النائم وإنْ تعلّق بركابها .بلْ تلفظه كما تلفظ البحار جثث الغرقى وبقايا الحيتان الميتة , مثلما تلفظ الأودية زبدها فيذهب جفاء.

تمتع وضاح بقراءة كتابه فقد آنس وحْشته وأيْقن بوجاهة مأثور القول "خيْرُ جليسٍ في الأنامِ كتاب". وماهي إلاّ لحظات حتى سمع صوت المسؤول يناديه. نهض مسرعا .فوجد أباه ينتظره أمام باب المعهد . سُرّ لرؤيته .وانتابه شعور بالأنْس. اِرتسمت على محيّاه ابتسامة عريضة .فعانقه عناقا طويلا كما لوْ أنه لم يره منذ سنين . تلك هي عاطفة الأبوّة .وذاك هو هيام الصبيان بآبائهم. سأله عن سبب تأخّره فأخبره بأنه لمّا كان في طريق العودة سقط حماره حين التوتْ حوافرُه بيْن الصخور الجاثمة على صدر الأرض.ولم يعدْ يقوى على الوقوف فتركه فريسة للسبّاع الضّارية .

تنهّد وضاح وبكى أحّر بكاء وكأنه فقد عزيزا .لقد عاشر حمار أبيه لسنوات عجاف . به تُقْضى مآرب العائلة وعلى ظهره يتنقلون لجلب الماء من العين الجبليّة .

عاد الأب وابنه مترجّليْن .وصلا إلى البيت قبيْل المغرب بقليل . فرح إخوته بقدومه .واحتضنته أمه بلهفة وكأنّها تخفي حنينا جارفا. تناول طعام العشاء . بدا له أفضل من طعام المعهد وإنْ تعدّدت أصنافه. وقال في صمت : "للجوّ العائلي نكهته الخاصة وحميميّته المعهودة"

تسامروا أمام موقد الحطب التقليدي وكان وضاح يتوسّطهم وكأنّه في جلسة مساءلة. حدّثهم عن حياة المدينة وعن عالم جديد لم يألْفه من قبل, وعن صديقه أحمد وكيف رفض مرافقته لمّا دعاه. نظر إليه أبوه بإعجاب وقال :

- ولِمَ رفضت دعوته يا وضاح ؟

- يا أبي كيف أرافقه وأنت لا تعلم ؟

- كنت أتوقّع قدومك .أعْرف أنّ شعور الأبوّة جارفٌ فيك.

ابْتسم أبو بكْر ابتسامة عريضة وهو يحتضنه ولسان حاله يقول:

- "طوبى لي بهذا الرجل الصغير "

٤

قضّى الفتى وقتا ممتعا بين أفراد أسرته.نهض باكرا وكعادته تجوّل في الأماكن التي تمثل جزءا من كيانه. نزل إلى أعماق الوادي وتمرّغ على رماله. ثم تسلّق الجبل واعتلى قمّته وراح يُجيل بصره في كافة أنحاء المكان . اندهش وهو يراقب ما ربض على الأرض مراقبة النسور لفرائسها. تمتّع بالنسيم العليل يداعب شعره الحريري. و تراءى له الوجود في أبهى حلله. تذكر ما قرأه بكتاب المطالعة. واستحضر ما كان يردّده :

" ومن لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر ".

أيقن وضاح بأن في العلوّ حياة مغايرة لا تتيحها المنحدرات والمغاور . في القمة يتراءى له القرار عدما والسكون كفرا وعصيانا . وفي الثّبات يخرّ الناس صُمّا وعُمْيانا .

نزل رويدا رويدا مخافة السقوط وكأنه يتحسّس مواضع قدمه عاد إلى البيت .وعلى غير عادته تأبّط أغراضه وقال لأبيه :

- أبي: لا ترافقني فإنّي خبرت الطريق . كفاك تعبا وشقاء .

ردّ الأب في شبه حيرة وذهول :

- بنيّ لا تزال صغيرا عن مكابدة مشاق السفر والمدينة تبعد من قريتنا أميالا.

ردّ الصبي بإصرار :

- دعني أبادر حياتي بنفسي يا أبي. فكمْ من ولد يتيم تقاذفته أمواج البؤس ونحت مسار حياته بنفسه!

تعجّب الأب لوقع ما سمعه وقال مازحا :

- لك ما أردت أيها الرّجل الصغير. باشرْ حياتك بنفسك. وفّقك الله يا بني .

ودّع أفراد أسرته. وانطلق مسرعا بين شعاب الطريق ومسالكه الملتوية .بدت له السّبيلُ قصيرة على غير عادتها وهو يطويها طيًّا . قطف بعض الزهور الجبليّة هدية لرفاقه بالمعهد فينقلهم عبر روائحها العبقة من أتون المدينة إلى جمال الطبيعة. ومن ضوضاء شوارعها إلى سكينة الجبال.

لم يمرّ وقت طويل ووصل وضاح إلى مشارف المدينة . التحق بالمعهد فوجد بعض أصدقائه. تجاذبوا أطراف الحديث. طفق كلّ منهم يحدِّث عن قريته وعمّا يميزها . كانت أمسية رائعة خرج فيها عن صمته المعهود وحاور رفاقه . قرّر أن ينشئ لذاته معهم متنفّسا يكون له دافعا يخفف من وطأة حنينه إلى أهله.

أوجد الصبي طريقا أخرى وسبيلا مغايرة. فصار مرحا مع أترابه. أدرك ببصيرته النافذة أنّ الحياة تتطلّب تواصلا مع الآخر. وأنّ الانكفاء عن الذات لا يولد شخصية متوازنة . إنّما منتهى التوازن يكون عبر التعرف إلى الناس والتواصل معهم والخروج عن الدائرة الضيقة معانقة لماهو أبعد مدًى. فصار

يخرج معهم في أوقات الفراغ إلى بعض الأماكن الترفيهية. يرتاد المكتبات العمومية باستمرار حبّا في المطالعة وشغفا بها.

٥

توالت الأيام وتسارعت وتيرتها. وكان وضاح يصْنع تفوّقه سنويا. أصبح شابا رصينا يحدوه أمل كبير في نحت مصيره وتجاوز نكبات الواقع مؤمنا أنّ الحياة لا يمكن أن تستقيم حياةً ما لم تكن محفوفة بالصّعاب , متشعّبة الأبعاد. وأنْ ليس للإنسان إلاّ أنْ يثبت كلّما همّ بالسقوط , ولا يهفت صوته الشجيّ ولا يركن إلى العجز والهوان. لذلك كان يحْرص في كل عطلة صيفية أن يلتحق بالمدن الساحلية ليشتغل حتى يؤمّن عودته المدرسية ويعيل نفسه بنفسه. فيساعد أباه على تقاسُم عبء المسؤولية تجاه العائلة.

في أول مصافحة له بالساحل اشتغل مع "العم محمود"الذي قضى من العمر ردْحا يقتات ممّا يجود به البحر من خيراتٍ عميمةٍ . كانا يبحران ليلا والقمر يرسل ضوءه الساطع. فينعكس على المياه محدثا منظرا بديعا تتراقص فيه الأنوار على أكفّ المياه .أجال بصره فتراءى له البحر ممتدا . نظر بعيدا فبهت لأضواء السفن الباهتة وهي تمخر عباب البحر.راقبها كيف تتمايل باهتزازات خفيفة إذا داعبتها الرياح. وكيف يظْلَلْن رواكد على ظهره إذا ما هَفَتَ النسيم وسكنت الذاريات. هام بالبحر وهَفَتْ نفسه إليه. فسكنته فهي في مكْنونه.

إنها المرة الأولى التي يعتلي فيها قاربا بحريا .بدا له المكان بديعا فبقي مشدوها يتأمّل سحْر المشهد. وماهي إلا لحظات حتى صاح به العم محمود :

- يا ولدُ: أجئت للشغل أم للترفيه ؟هيا أسرع. اجذب الشبكة وارْمها في البحر. وراقبها عن كثب.

ردّ وضاح بأدب بعدما تفطّن إلى تقصيره :

- حاضر سيدي, عذرا لقد هالني البحر. فانشغلت به.

تبسّم العم محمود وردّ في لطف:

- يا وضاح: لابدّ أن تتقن عملك حتى تأْمن مكر الحياة. لا يكفي أن تكون متعلّما بلْ ينبغي أن تتعلّم ما أمكنك تعلّمه من مدرسة الحياة . أنْ تنْهلَ من دروسها في مسارح أحداثها ,أنْ تنْظر فيها بتدبّر لتضمن لنفسك حياة كريمة . الحياة الكريمة لا توهب. بلْ نقارعها وبسواعدنا نشيّدها.

تنهّد الولد وأردف قائلا :

- ما لهجْتَ بغير الحقيقة عمّاه . من خبِر الحياة لا يجب أنْ يطمئنّ إليها . أن يثبت فيها مهما عتتْ عواصفُها .أن يؤمن كلّ الإيمان أنّه من ضيّع درسا من مدرسة الحياة أضاع حيلة يمكر للدهر بها .

أحسّ وضاح أن الشبكة تثاقلت بيده . بدأ يسحبها بكل ما أوتي من قوة حتى ظهرت أطرافها وقد امتلأت بشتّى أنواع

السمك . قام بإفراغها على ظهر القارب. ثم رماها ثانية. وبدأ يرصّف ما غنِمَ في صناديق بلاستيكية. وكم من مرّة يفْزع حين تتحّرك سمكة بين أنامله وهو يهمّ بوضعها في الصندوق. لكنه سرعان ما يتجاهل الأمر ويستمرّ في عمله.

قضى وضاح الليل كلّه في البحر. ولمّا تنفس الصبح بدأت ملامح هذا الفضاء الممتد تتوضّح . أشرقت الشمس مرسلة أشعتها الذهبية. فتحولت المياه إلى سبائك تنعكس عليها زرقة السماء. فاكتست لونا لازورديّاً بديعا. وهبّ نسيم شرقيّ تراقصت له أمواج البحر. وراح بعضها يدفع بعضا لتنكسر على الشاطئ محدثة صوتا عذبا تطرب له الأسماع .وأجال بصره في أقاصي البحر. فبدا له منطبقا مع السماء في تناغم غريب حتى لكأنّه أمسى معراجا إلى الأفق الرّحب , معراجا راحلته الماء ورحْلته طهارة وعزم وصفاء لا يلين.

عاد وضاح ومحمود أدراجهما وقد غنما صيدا وفيرا. عند بلوغ الميناء نزل الولد. و ودّع صديقه وتواعدا على لقاء قريب. ثم عاد إلى المنزل الذي آجره مع صديقين قدما من قريته يلْتمسان شغلا يمكّنهما من مواصلة الدراسة .ذلك هو دأْب كلّ شباب القرى والأرياف أثناء أوقات فراغهم . هم يعلمون يقينا أنَّ همّتهم تعلو على عجزهم. ومِن تعبهم يصنعون مُتْعتهم.

استسلم للنوم بعد ليلة تعب قضاها يصارع البحر ويغالبه.والذاكرة لا تزال بالبحر عالقة.ذلك المارد العملاق الجاثم الممتد امتداد البصر.كان يرى فيه عالما خاصّا وسرًّا دفينا ما له من قرار . تستهويه زرقته على علمه أنّها انعكاس لقبّة السماء

عليه .كان يهيم به غموضاً وصفاءً . فيرى فيه حياة وسكينة في هدوئه .وموتا وغضبا في هيجانه .لطالما تناهت إلى مسمعه حكايات قوارب الموت التي يركبها الشباب العاطل أملا في غدٍ أفْضل. فيمتطون طموحهم صوب فنائهم وهم لا يعلمون .يبتلعهم هذا الجاثم وهم صاغرون.لذلك كان وضاح يخشى البحر بقدر ما يعشقه . ينفر منه بقدر ما ينجذب إليه . ذاك هو دأبه كامل الصيف وفي كل صائفة من سنوات الدراسة . كان شديد الرغبة في تأمين مستلزماته, غير عابئ بالمصاعب والمشاقّ , مستهزئا بالرّكون كافرا بالعجْز والخضوع . وكان يسهِمُ مع أبيه في توفير ضروريات الحياة. فهو لم يكن الابن الوحيد الذي يدرس. بل له أخوان يتهيّآن للدخول إلى مقاعد الدراسة. ويعود الفضل إليْه فقد أقنع أباه بضرورة تعلمهما رغم قلة ذات اليد. كان يعتقد أنْ لا عذْرَ يحجب نور المعرفة عن ذات الإنسان. فقد خُلق ليعرف .

هكذا أيقن وضاح - على حداثة عهده بالدنيا - أنّ التعليم هبة لا ينبغي أنْ يُحْرم منها الإنسان حتى لا يكون للجهل فريسة تتقاذفه أمواج البؤس وتخوم اليأس.

٦

عاد في مستهلّ السنة الدراسية وهو يتهيّأُ لاختتام مرحلته الثانوية ليلتحق بالجامعة. بدا مفعما بالأمل تحدوه رغبة جامحة في التميّز حتى ينال توجّها يرضيه ويلبّي انتظارا ته.

انطلقت الدروس وكان الشاب من المواظبين على الحضور. ماثلا في الدرس بحصافة عقل ورصانة فكر .كان محلّ حب الجميع ,غير أن التعليم في بلده يخضع إلى عديد الابتزازات. لعلّ مِنْ أهم ظواهرها مسألة الدروس الخصوصية. و هي دروس تعطى بمقابل خارج أسوار المعهد. وتكون في الغالب لأبناء المترفين والأغنياء. أمّا الفقراء أمثال وضاح فلا حظّ لهم فيها .لم يكن الولد يحتاجها. فما يتلقاه في الفصل وما يرصده مِنْ مطالعاتهِ مِنْ معارف يغنيانه عنها .حتى وإنْ رغب في تلقيها فهو لا يقدر.

اِنكب عن العمل استعدادا للامتحانات. قليلة هي المناسبات التي يعود فيها إلى قريته درْءًا لهدر الوقت ورغبة في التميّز. التحق كل التلاميذ بالدروس الخصوصية ماعدا وضاحا وزميلين له.

تلك هي حتمية الواقع وقسوة الحياة في بلد يدّعي مجانية التعليم وحياد المعلم .

اِجتاز التلاميذ الامتحان. وتحصّلوا على أعدادهم فكانت المفاجأة . وضاح الذي يشهد الجميع بأفضليته يقصرعن نيل أولى المراتب لتكون مِنْ نصيب مَنْ يتسللون لواذا إلى مستودعات الدروس الخصوصية خارج حرم المؤسسة . كانت الأفضلية للدّراهم أمام نور العقول. كان التميز للمادّة أمام صفاء المعرفة.

بدتْ على الطفل علامات الحيرة وارتسمت على وجهه البريء ملامح يأس وقنوط أربكت جهوده وأضنت مخيلته. لم يقدر على فعل شيء . هل سيجرؤ على مناقشة أساتذته؟ فلا منزلته تسمح له وليس له من الجرأة أنْ يفعل وهو الصبيّ الذي نشأ على تعلّم القيم الأصيلة رغم فقره المدقع. تعلّم أن الحقّ لا يضيع وإنْ كلّ طالبُه وأنّ طريق الحياة تحفّها الأهوال وأنْ لا استسلام مع تعنّتها ولا سكون مع انغراس في الواقع .

ما عساه يفعل وجلّ مجهوده يذهب سدى وهباء منثورا ؟ فكّر في التغيب والانقطاع . خاطب نفسه في حزن : "أكُتبَ عليّ الشقاء والبؤس دون غيري ؟ هل كان الفقر في نظر الناس نقيصة تُعْدمُ حقي وتجْهِضُ أملي"؟

سرعان ما تدارك مدندنا رأسه :" في ظاهره تعليم مجاني وفي باطنه استنزاف مادّي ". أحسّ بنفور غريب ينتابه ويشدّ وثاقه. واسْتبدّت به هواجس شتى . كان صديقه أحمد من المقربين إليه. لاحظ فيه انطواء غير معهود.لم يعدْ وضاح ذلك الشاب المبتسم الضحوك. بل أمسى عبوسا قمطريرا. وكأنّه يحمل أعباء الدنيا وهمومها فبادره قائلا :

- وضاح لم أعهدك على حالتك تلك . فما الذي طرأ ؟

صمت متجاهلا .لكن لم يصمد أمام إلحاحه فقال :

- أصبت بخيبة أمل كبيرة جرّاء ما تحصّلت عليه من تقييمات. لا أعرف مكمن الإشكال تحديدا مع أنني كنت مواظبا مجتهدا. حقيقةً جميعُكم يعلمها .

ردّ أحمد في هدوء :

- كلّنا يشهد أنك المتميز. اِلْتحقْ بنا لتتدارك أمْرك عبْر سبيل الدروس الخصوصية.أعلمُ أنّ ظروفك لا تسمح. لكنْ لا تنشغل صديقي. سيتكفل أبي بتسديد المبلغ. أترجاك ألاّ ترفض طلبي.

نظر إليه نظرة ثاقبة وقد استشاط غضبا واحمرّت وجنتاه. وهتف قائلا:

- أنت تعلم أنّي أؤثر على نفسي ولو كانت بي خصاصة .لا أقبل أن أكون عبءا على أحد . هكذا علّمني والدي . ومن الحياة تعلّمت ما لم يتعلّمْه البعض . علّمتني عدم الانحناء إلّا لخالقها وهمست لي:" إياك والخنوع. كنْ حركة تسري تكتسح حدود الكون. كنْ نورا مشعّا يهتك ستر الظلمات. كنْ همسا من الشوق يغري. "

طأطأ أحمد رأسه وأردف قائلا :

- ما قصدت إحراجك. كنت أرمي إلى إخراجك من حالة العزوف والحزن التي عصفت بك. أعرف أنك ظُلِمْت وأنك على التّجاوز وصنْع النّصر لقدير .

حمْلق وضاح في عيني صديقه. وعانقه عناقا طويلا. ثم همس إليه في لطف:

- أحمد: لو لم تكن صديقي الأقرب إلى نفسي ما كنت بُحت إليك بما أقضَّ مضْجعي وأذْهب سكينتي فالعفو صديقي. انا أعلم أنّه لو كنتُ ممّن يلتحقون بمستودعات الدروس الخصوصية لتحّصلت مثلكم على ما أريد. لكن مازال الحسم لمّا يحن بعد . في يوم الحسم سوف لن يصمد غيرُ الشجاع الأبيّ الذي أجهد نفسه وأضناها. وسيندحر غيره ممّن تواكلوا وأوكلوا أمرهم إلى غير الإرادة. أحمد , أحمد ,أعدك صديقي بذلك. وسيرى الجميع حجم فعلي وجامَ إرادتي. وإنّ "غدا لناظره لقريب"

تعجب أحمد من إصرار صديقه. وبارك له تحدّيه. ثم توجّها إلى حيث يوجد بقية التلاميذ. وكان الطفل قد وارى غضبه. وعاد إلى سالف طبعه وفي النفس تتقد جذوة الفعل متوعدةً نابضةً .

٧

نظّم مدير المعهد رحلة خاصة بالأقسام النهائية. قضى التلاميذ ليلتهم فرحين لم يجدوا إلى النوم سبيلا. فهم سيستمتعون بجولة ترفيهية تنسيهم أتعاب الدراسة وضغوطاتها .

حلّ موعد السفر. صعد وضاح آخر التلاميذ.كان بطبعه ميّالا إلى كره الازدحام . أجال بصره باحثا عن مقعد . لم ير غيره بجانب "فتاة وجهها مستدير كأنّه قمر مستنيرٌ. خداها مكتنزان كأنهما تفاحتان بلون شقائق النعمان. أنف أقنى كأنه مرجانٌ .

أسنان لؤلؤٍ كثيرة اللّمعان. شفتان من الكرز مخضّبتان. ابتسامة كالورد تزهو وعيون تحاكي الغزلان. شعر أسود في خبايا الحجاب حالك كالليل . حليّ الفضة تزين كل الأطراف والحلق من زمرّد والقرطان في أذنيها يتراقصان . عنق طويل فيه قلائد جمان وجمال يرافقه جمال. بعينيها نظرات تعب وعتب ".

جلس وضاح إلى جانبها وهي تسترق إليه النظر. شعر بمراودتها لكنه تجاهلها ولم يكن يدري أنها أوقعت به ليجالسها بعدما تعمّدت إخلاء مقعده حتى يأتي. رمقته بنظرات حادة وتبسمت له ثم قالت :

- يا وضاح أنا "صالحة " ابنة مدير المؤسسة. كان أبي دوما يحدّث عنك على أنك مثال للجدية والانضباط والعمل. كان يدفعنا إلى النّسج على منوالك والاقتداء بك .

ارتبك وضاح وردّ بتلعثم كبير :

-أأنت ابنة مدير معهدنا ؟
أجل : ألم أقل بأنّ أبي كان كثير التحدث عنك ؟

أحس بخوف يتسرّب إلى جوفه. فتسارعت نبضات قلبه. وبدأ بالتعرق. فهو اِبن القرية النائية. ولم يألف مثل هاته المواقف . كان يعلم أنّ مثل هذا الشعور حكرٌ على من توفّرت لهم مقتضيات العيش الكريم لا لمن ضيّق عليه الفقر وأعدمه العوز.

همس إليها وهو ينظر إلى النافذة المحاذية :

- كان الله في عونك .

ردّت بكل ثقة وقد ذبلت عيناها ولَان حديثُها :

- لقد ترددتُ في البوح إليك .....

صمتتْ برهة ثم قالت :

- أحبك يا وضاح .

- انتابه خجل كبير. وتظاهر بالتجاهل وردّ متلعثماً :

- أنا لم أعرف للحب معنىً. وأيُّ حب سيكتسح حصون قلبي الدامي ؟ أنا التلميذ القرويّ الفقير. أرهقتني الحياة. فتحمّلتُ أعباءها على صغر سنّي .

تنهّدت وقالت مستعطفة :

- ما كان الفقر عيبا يا وضاح..., كلُّ العيب أنْ نتنكّر للمشاعر فنكبتها. أمَا يحقّ لها أن تزْهوَ كما تزهو الحياة ؟أمَا يحقّ لنا أنْ ننعم بدفء الشعور وهمس المشاعر كما تهمس الريح لعطر الشذى ؟

- صالحة :أنت نشأت في محيط حضري توفّرت لك فيه كل مستلزمات الحياة. أبوك موظف مركزه مرموق, طبعا من حقك أن تفتحي قلبك للشعور وأنْ تقبلي على الحياة كلّما طابت لك.أمّا أنا فحالي مختلف تمام الاختلاف. نشأت في عائلة أضْنتها

ظروف الحياة. ليس من حقي أنْ أحفل بمشاعري حتى يجعل الله لي سبيلا .

ساد صمت مطبق والحافلة تطوي الأرض طيّا حتى وصلت العاصمة. نزل التلاميذ وتفرقوا في اتجاه المدينة . منهم من فضل التجوّل في مغازات الملابس. ومنهم من قصد البحر مثل وضاح وقد تعلقت به صالحة .خيّر الوقوف على رماله الذهبية والنظر إلى أمواجه الزاخرة . كان يحدّثها عن جمال البحر فتحدّثه عن الحب . يتهرّب من أسئلتها. لكنه عندما أيقن بإصرارها صارحها قائلا :

- لاتحدثيني عن الحب. لسْت ممّن ينشغلون به ولمّا يحن أوانه بعد . هناك أولويات حياة دعيني أخوض معركتي ضدّ أعبائها.

تورّد وجهها وازداد إصرارها غير أنّ الحياء منعها. فتركته وانصرفت إلى صديقاتها. وبقي وضاح يتأمّل المشهد الخلّاب وقال مخاطبا نفسه:"ما كان ينقصك غير فتح دروب الحبّ يا وضاح "!

لمّا حان موعد العودة تجمّع التلاميذ على هتافات الدليل. وامتطوا الحافلة راجعين إلى المعهد.إستسلم وضاح للنوم. ولم ينهض إلاّ عند توقف الحافلة. .توجّه الصبي إلى المبيت ليكمل ليلته ويلتحق من غده بقاعات الدروس . بقيت صورة الفتاة الجميلة في مخيلته لا تبرحها . تقلّب في فراشه يمنة ويسرة . لم يداعب النوم جفونه .كان كلّما أغمض عينيه تجلّت صورة صالحة الفتاة الجذابة . يبدو أنه أحبّها ولم يقدر على مبادلتها

الشعور . ربّما هي المرة الأولى التي يستمع فيها إلى مناجاة أنثى وهي تدغدغ مشاعره. لعلّه كان يجرؤ لو كانت منزلته الاجتماعية أفضل وهمس قائلا :

"متى ستزهو لك الحياة يا وضاح ؟ومتى ستقبل عليها بكل عنفوانك وهي راغمة ؟"

٨

توالت السنون وتعاقبت الأشهر والأيام مسرعة.لم يكن له من اهتمام سوى الانكباب على دراسته .فهي ملاذه الوحيد وهي مطمحه ومقصد سعيه .

حلّ موعد اجْتياز امتحان الباكلوريا وأنْ ليس له إلا أن يقتلع نجاحه بتفوق . كانت ساعات الانتظار طويلة متباطئة ثقيلة. وكان وضاح قد التحق بالقرية حيث منزل عائلته منتظرا يوم الإعلان عن النتائج . ولمّا حلَّ اليوم الموعود نهض باكرا. واصطحب أباه وأخويه.كانت جموع التلاميذ وعائلاتهم تنتظر بشغف كبير.

تمّ التصريح بالنتائج. فكان الفتى من أوائل المتفوقين. فرح وغمرته نشوة الانتصار. فعانق أباه طويلا وقد تهللت أسارير وجهه. وممّا ضاعف فرحته نجاح الفتاة صالحة التي أحبّها سِرًّا وأنْكرهاَ جهرا لتكون رفيقته بالجامعة . اليوم وبعد نجاحه أيقن أنّه كان يحبها غير أنه وارى شعوره وحجبه.

سينتقل وضاح إلى حياة مغايرة. إنّها الحياة الجامعية بزخمها وترفها. سيدخل الجامعة وهو شاب يافع يتقد نشاطا وحيوية. في الأثناء كان أبوه قد تمكن من الحصول على شغل في إحدى الحضائر الفلاحية حارسا ليليّا . وكان قد غمره فرح كبير وهو يُدعى إلى الشغل حتى يرى حلمه يكتمل . كان أقصى حلمه أنْ يوفّر مستلزمات ابنه. لذلك فهو لا يكترث بتعب الأيام والليالي وهو يحرس الضيعات الفلاحية بمقابل زهيد . كان يقارع برد الليالي بإيقاد النيران فلا يتوانى ولا يكسلْ . يعود في الصباح إلى منزله ليتولى رعي الأغنام. ذاك دأبه في أيامه ولياليه .كان يترنم بالغناء فيطرب لسماع صوته ويستعذبه. أيقن أنّ الحياة مجاهدةٌ ومكابدةٌ وأنها لا تنتظر المتكاسل المتخاذل. كان دوما يوصي وضاحا بضرورة كسب المعركة ضد الحياة. وأنْ لا يستسلم لصعابها مهما قست, عليه مقارعتها حتى يضمن لنفسه أن يعيش كريما.

اِلتحق وضاح بالجامعة صحبة الفتاة التي أحبها وبادلته ذات الشعور. كانا لا يفترقان إلا للنوم. يجالسها في كل ساحات الجامعة. يحدثها عن المستقبل , عن الحياة . كانت شديدة التعلق به لما عهدتْه فيه من طيبة وحسْنِ خلق.

اِنبهر الصبي لِما وجده في الجامعة من أجواء تختلف عمّا ألفه في مرحلته الثانوية. فاتسعت دائرة أصدقائه وتنوعت.هذا هاشم طالب الحقوق الشغوف بتتبع المجلات القانونية. وذاك فوّاز طالب الهندسة , صاحب الفكر الوقّاد والبحث الدائم . وتلك سالمة طالبة الاقتصاد الشغوفة بالتطلّع إلى استنباط رؤية

اقتصادية تعدل بين أبناء الوطن الواحد فتهفت أصوات الحيارى والمغلوبين على أمرهم .أمّا وضاح فقد كان ميّالا إلى المجال العلمي .أحبّ نظريات الفيزياء والرياضيات وكان يجد كبير لذة وهو يتنقل بين عويص مسائلها وعسير اشكالياتها.

كان دأْب وضاح ورفاقه أنْ يرْتادوا قاعات المطالعة والمنتديات والمشاركة فيها. فيتطارحون عديد المسائل الفكرية. لقد كانوا شعلةً متقدةً في سماء المعرفة .آمنوا أنّ الواقع لا سبيل إلى مباشرته وتغييره إلاّ بالانكباب على العمل والمضيّ قدما في سبيل تحرير الذات مما يكتنفها من عجز. وأنْ لا مكان لمنْ سكنه الضعف والوهن ورضي بهما منزلة له وجاها.

كان أغلب الطلبة الوافدين من المناطق الداخلية يعانون ظروفا اِجتماعية صعبة اعتبارا لما تعيشه عائلاتهم من عوز وحرمان. فكانوا يفضّلون البقاء بمبيت الجامعة أثناء بعض المناسبات الدينية ولا يعودون إلى ديارهم حتى يجنبوا آباءهم نفقات إضافية يشقون في تحصيلها. كان جلّ اهتمامهم ينصبّ حول إنهاء دراستهم والبحث عن شغل حكومي يمكنهم من ردّ الاعتبار لمن أفنى العمر وهو يشقى لأجلهم كما الشمع يضيء فيحترق. كان يجمعهم حبّ مقارعة الصّعاب ومجابهتها والحِرْص الدّؤوبِ على تغيير واقع الفقر والخصاصة واستبداله بواقع أفضل . كان ذلك هو الحلم الذي يراودهم ويدفعهم إلى الانغراس في الفعل الذي لا يلين .

٩

ذات اضحى لم يتمكن وضاح وصديقاه هاشم وفواز من العودة إلى عائلاتهم. فقضوا يومهم بالمبيت الجامعي مستعدين لإجراء اِمتحانات آخر السنة.

- كم هو مؤلم أن تقضي عيدا وأنت بعيد عن أفراد أسرتك!

هكذا هتف فواز .

التفت إليه وضاح وقال في شبه ابتسامة :

- نعم صديقي , ذاك قدر المحتاجين أمثالنا .سينقضي هذا العام وكأنّ شيئا لم يكن . كم انقضت أيام وشهور وسنوات ولم تبق منها غير ذكرى خادعة !

تدخّل هاشم قائلا :

- يا فواز: كنّا نودّ لو تمكنا من العودة لكن ما باليد حيلة. فنحن خُلقنا فقراء وليس الفقر عيبا ولا نقيصة. بلْ العيب أن نعجز عن الصمود والنقيصة أن نخون عهد الواجب ونداء العقل.

جنّ الليل وأرخى الظلام سدوله . تسامر الأصدقاء حتى ساعة متأخرة من الليل. ولم يمنعهم العيد من مراجعة دروسهم استعدادا لامتحانات آخر السنة. تلك هي مسؤولية الصغار العقلاء لا يثنيهم شوق ولا نصب عن السعي إلى معانقة الإبداع

لم يتيهوا في زخم المدينة ولم يحيدوا عمّا جاؤوا من أجْله. كانوا كلّما نزغهم من الشيطان نزْغ تذكّروا فإذا هم مبصرون.

نام فواز وهاشم فعلا شخيرهما. أمّا وضاح فخيّر الجلوس بشرفة الغرفة المطلة على المدينة وهو يراقب هدوءها غير المعهود وسكونها المطبق. تراءت له المدينة بامتدادها واتساعها ضيقة حسيرة , ضيق نفسه وانحسار مشاعره . كان من المفترض أنْ يكون بين إخوته وهو كبيرهم يشاركهم فرحة العيد على فقرهم وخصاصتهم. تذكّر دوره مع والده كلّ اضحى وكيف كان يشاركه ذبح الشاة وسلخها. تذكّر كلَّ لحظات الفرحة الموءودة في نفسه. وانسابت الذكرى حنينا جارفا وشوقا عارما. كان كلّما تذكر حاله وحيدا تضاعف إحساسه بالمسؤولية علّه يحقق ما حلمت به عائلته , أن يصبح ابنها البكر موظفا مرموقا ذائع الصيت. ذاك هو دأب الآباء مع أبنائهم. يرون أقصى فرحتهم ومنتهى سعادتهم في نجاح صغارهم كما الفلاح يحرث أرضه ويسقيها بعرقه ويثبت على الاعتناء بها حتى تثمر.

هام وضاح وهو يتأمل هدوء المدينة وضجّت بفكره ذكريات شتىّ. كان يؤمن إيمان العجائز أنّ للاجتهاد ضريبة وللصبر ثمنا. كان مصّرا على أن يخلق من السّلب الإيجاب وأن يجعل من حبّات منع الحمل مصدر الإنجاب. اِستوعبت نفسه الحقيقة واستيقنتها ذاته. فلا حياة دون مجاهدة. ولا وجود دون مكابدة ومن براثن الألم يتولد الأمل. ومن تخوم العذاب تنبجس العذوبة

عذوبة الفعل ونشوته , عذوبة ما به يكون الإنسان إنسانا عصيّا عن المستحيل .

هبّت نسائم الفجر الأولى وتبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود ولا يزال وضاح جاثما. نهض متثاقلا واستلقى على فراشه أخذه النعاس بعدما استبدت به الذكرى ففعلت فِعْلها فيه .

اِنتهت فرحة العيد وبدأ الطلبة يتوافدون على الكلية استعدادا لإجراء اختبارات سنة التخرج. وكان وضاح رابضا في المحطة ينتظر الحافلة المقبلة من مدينته, يترقّب مجيء صالحة. كان يجيل بصره بين الفتيات النازلات وكأنه يبحث عن شيء فقده. اِنتظر لساعات طوال. ولم يقع بصره على الفتاة التي أحبها وهام بها عشقا.انتابته شكوك وهامت مخيلته تبحث عن أجوبة تبرّرُ أسباب تأخرها ثم قفل راجعا.

كان يسير بخطى متباطئة. وما كاد يدلف باب المبيت حتى لمح صالحة تترقبه. لم يصدّق بصره فأصابته حيرة وذهول. ثم تمعّن جيدا , يا للمفاجأة ! إنها الفتاة التي علّمته أصول العشق العفيف في حياة طالما أرهقته بصعوباتها وهزاتها. تقدم منها وصافحها برصانته المعهودة وابتسامته التي لا تفارق محيّاه وبادرها قائلا:

- من أيّة وجهة قدمْت؟ كنت بالمحطة منذ ساعات الصباح الأولى أترقبك ترقب الصائم لفرحة الإفطار. بل ترقّب المحاصر لفرحة فك الحصار.

ابتسمت الفتاة وردت في تمنّع ودلال :

- لقد أوصلني أبي بسيارته منذ حين و غادر لتوّه.

تنهّد ورد في شبه ابتسامة :

- أنتم وجهاء القوم تعودون إلى دياركم كلّ عيد وتعيدكم سيارات آبائكم. أما نحن فلا عيد لنا. نبقى بالجامعة إذْ يغادرها الجميع. ذاك قدرنا نعايشه ونسعى إلى تغييره.

وارت صالحة دمعتها وربّتت على كتفه وهمست له :

- وضاح: هكذا هم الرجال. يتألمون ولا يشتكون.يقارعون أهوال الوجود وهم كالشمس لا يخمدون. تتقاذفهم أمواج البؤس ولا ينكسرون . لأجل ذلك أحببتك يا وضاح.

أخرجت له إناء مغطّى تفوح منه رائحة الشّواء وناولته إياه. نظر إليها مليّا. تمعّن فيها . تفرس في ملامحها . أغمض عينيه وفتحهما . تبدّت له كأمّه بحنينها وشوقها . تلك هي الأم تحن إلى صغارها حنين النيّب إلى فصالها ولا تقوى على تحمّل غيابهم. ثم رد قائلا :

- طوبى لي بك يا زهرة منغرسة في تربة قلبي . يا أملا ينبجس من براثن الألم . يا نورا مشعّا يخطف بصري وينبعث من سراديب ظلام نفسي . يا همسا تخفيه الشفاه وتبوح به العيون .

تورّد وجهها حياءً . نظرت في ملامحه . التقت أعينهما في حيرة مذهلة . سرعان ما صرفت عنه لواحظها وقالت :

- لا تنس أنّ غدا موعد الاختبارات النهائيّة. هيّا , كفَّ عنْ غزلك وأرنا مهارتك في المعرفة.

نظر إليها نظرة إعجاب وتمتم :

- وهلْ تستقيم الحياة دون حرارة عاطفة؟ غزلي فيك كان بالكلم. وللمعرفة غزل بالفعل ونحن له خيْر أهلٍ.ثم ودّعها وانصرف .

دخل فوجد صديقيه منكبّين على المذاكرة. شاركاه أكْل صحن الشواء.ذاك طبعه فهو لا يستأثر بشيء لنفسه. ففواز وهاشم ينحدران مثله من ذات المحيط الاجتماعي يجمعهم الفقر وقلة ذات اليد.

١٠

دامت امتحانات التخرّج أسبوعا ووضاح منكب مع صديقيه على المراجعة . قلّ خروجهم, اللهم لتناول وجبة الأكل . فهم يعلمون كل العلم أنّ أهلهم يعوّلون عليهم ممّا جعلهم يتحملون مسؤولية تنوء الجبال بحملها. هم على يقين بأن فرص الحياة ثمينة وأنّ المرء متى تهاون قد تمكر به الدنيا وتتربّص به الدّوائر لذلك وجب المثول أمامها وفيها بكل الثقل ومنتهى الفعل وأقصى العزم .

حان موعد إعلان النتائج . اِستبدّ بالطلبة انتظار مقيت وقد بلغت القلوب الحناجر.كان المتعلمون قد توزّعوا صنفين بحكم انتمائهم الاجتماعي. منهم مَنْ لا يعنيه شأن النجاح كثيرا ,هؤلاء يلجون الحرم الجامعي بسياراتهم رفقة صويحباتهم وخليلاتهم. ومنهم من ينحدر من الطبقات الاجتماعية المنسحقة شأن وضاح ورفيقيه كلّ همّهم اقتلاع النجاح وصنع التميز. فلا خيار لهم غير الدراسة. ولا ملاذ لهم سواها.

كان وضاح ورفاقه ينظرون إلى الصنف الأول من الطلبة كونه بورجوازيا. فيرمقونه بنظراتهم ويردّدون قولا رأوه إلى الحكمة أقرب .

- "من لم تنهشه ذئاب الأيام وتلدغه عقارب الليالي. يظلّ مغرورا بالأيام والليالي"

هم يعرفون أنّ الأزماتِ تصنع الأبطال. وأنّ الحياة لا يمكن أنْ تستقيم حياةً كما نريدها ما لم يصاحبْها ألم وتبرّم وسقوط فتعثّر ونهوض.فأي معنى لمسيرة لا تتخللها هزّات ورجاّت ؟ وأيّ طعم لهدف لا يرافقه ألم ؟

تم التصريح بالنتائج النهائية. وليس غريبا أنْ يكون وضاح من الأوائل تميزا وإبداعا.وكان رفيقاه فواز وهاشم و صالحة من ضمن الناجحين.عاشوا لحظات انتشاء قصوى أنْستْهم التعب والنّصَب الذي رافقهم طوال سنوات الدراسة. شعور بالارتياح راودهم. واتفقوا على الخروج في سهرة إلى المقهى المطل على البحر. فهي ليلتهم الأخيرة بالحرم الجامعي .سيتسلمون من الغد

شهائد تخرّجهم ويغادرون الجامعة وقد لا يجمع بينهم الزمن ثانية.

جلس الرفاق وطلبوا من النادل مشروبا . كان النسيم عليلا منعشا يهبّ من أعماق البحر. وعلى مياهه تتراقص أضواء كأنها سبائك ذهبية. أمّا الآذان فانشدّت إلى كوكب الشرق تشدو " هذه ليلتي وحلم حياتي بين ماض من الزمان وآت" آسرتِ القلوب وتملّكَتِ العقول . اِلتفت فواز إلى أصدقائه وقال :

- هنيئا لكم أصدقائي نجاحكم الباهر .

ردّ الجميع تزامنا ماعدا وضاحا:

- بارك الله لك يا فواز .

ظلّ وضاح يتأمل البحر وقد هاله . أحسّ بنظراتهم ترمقه وهم يتهامسون. فردّ التهنئة مبتسما. لكن هاشم ألحّ عليه حتى يعرف سبب شروده كعادته تنهد وقال:

- نحن كسبنا شوطا من المعركة. ولم تزل أشواطٌ تنتظرنا, لعلمنا أن واقع حال البلد يشكو بطالة قد طالت تقريبا كل الاختصاصات. رحلة البحث عن شغل مضنية في بلدي اللّهم أبناء وجهاء القوم من الطلبة .فإنهم لا يجدون صعوبة في الحصول على مآربهم دون عناء.

التفتت إليه صالحة معاتبة :

- وضاح: أليس من حقنا أن ننعم بفرحة نجاحنا ؟ أتظلّ دوما مكدّرا صفو اللقاء؟ دعنا ننعم بمتعة الجلسة. ودعْ هواجسك إلى أوانها .

نظر إليها باسما وقال :

- إن الأمر يختلف بالنسبة إليك . أنت فتاة تقلّ مسؤوليتك مقارنة بمسؤولية الرجال. مسألة الشغل لا تعنيكِ كثيرا. أمّا نحن فإنّ الحصول على شغل يكتسي أهمية أكثر من النجاح. وما قيمة شهادة علمية تنالها ثم لا تكون لك سندا. أعرف أنّ الطريق أمامنا متشعّبة وعرة. فكم من متخرّج ظلّ لسنين طوال في البطالة يقْبعُ.

تدخّل هاشم بعدما عرف أنّ الحوار سُيذهب فرحة الجلسة:

- دعونا نستحضر أهمّ ما ميّز مرحلتنا الجامعية من أحْداثٍ ونسترْجع من المواقف طريفَها .

طفق كل واحد منهم يحدّث في أطرف المواقف فعلتْ ضحكاتهم تقطع هدوء الليل وسكينته .

كانت أمسية ممتعة تسامر فيها أصدقاء تجمعهم نفس المشاغل وذات الهموم ولعلّها تكون المسامرة الأخيرة في عمر السنة الجامعية. سيتفرقون بعدها في دروب الحياة. ويضربون في فجاجها نحتا للذات وبحثا عن غد أفضل قد يغيّر بعضا ممّا يزخر به واقعهم من أوجاع .

تواعد الأصدقاء على اللّقاء متى سنحت الفرصة وقد تسلموا شهائد تخرجهم وتفرقوا .أما صالحة فهمست إلى وضاح :

- كنْ على اتصال ولا تشغلك ظروف الحياة عني. فقد آنست قربك وازّيّنت لي الدنيا. فرأيت فيها كمالي ومنتهى غايتي .نأْتْ نائباتها عنّي. فما عدت أنْشغل إلّا بك عنها. فكان لي ما أردت منها.

نظر إليها بطرف كسير وقال :

- إني لأشقى بفراقك .أرْمق جمال الكون وسحْره بعينيك النّجْلاويْن. فما عادت تشغلني فتنة الواقع عنك . كلّ صعاب الحياة تهون في حضرة عيْنيْك. بهذا الجمال استوى الكون بديعاً .إنّ البعد عنك يفقدني جزءا من ذاتي . فأنتِ قمر سمائي إذا ما أظْلم كوْني. أنت حركتي إذا ما هزّني تناوح سكوني .أنْت مُقامي إذا ما حلّ تَطْواحي وتِرْحالي. ثم صمت من الزّمن برْهةً وغنّى لها مقطعا من أغنية كوكب الشرق " بعيد عنك حياتي عذاب"وقد كان صوته جبليّا شجيّا أجشّ.

نظرت إليه بإعجاب وقالت مازحة :

- اليوم أيقنت أنك فنّان. ما رأيك أن نشكّل فرقة فنية .؟

نظر إليها وهو يعلم أنّ موعد الفراق قد أزِف وقال:

- ليس هذا أوان المزاح. أعدك أن لاأتوانى عن لقائك متى سنحت لنا الفرصة.أعرف أنّ اللقاء بك صعب بعد انتهاء

الدراسة. وقد لا تجدين من الأعذار ما به تتمكنين من لقائي في مجتمع يتهامس كلّما رأى فتاة وفتاها يتحدثان. وقد ينسج حوْلهما من الحكايات ماهما منه براءٌ. ذاك قدرنا في مجْتمعٍ يُحْسِنُ القَذْف ويجيده .كثيرون هم من شُتّتَ شْملهم ونُغّصتْ فرْحتهم وأُوذوا وعوقبوا بِقذْفٍ وبهْتانٍ .لكن لا تنْشغلي - إنْ كتب الله لنا لقاءً – وهو يَشْهد بطهارتنا ونُبْلنا .دعهم يقْذفون فإنّ قذْفَ الله أوْكدُ بمصداق قوله(نقْذِفُ بالحقِّ على الباطِلِ فيدْمغه فَإِذَا هو زَاهِقٌ)

حدّقت فيه مليّا وكأنها تقرّ بحقيقة ما قال وأرْدفت:

- سنحاول أن نسْترق من الزّمان لحظات نتواصل فيها. وننسج تفاصيل مملكة أحلامنا حتى يُكتب لها التحقق.

ودّعها. وغادر إلى قريته النائية متخرّجا يحمل شهادته الجامعية فذا متميزا. غمر أفراد أسرته فرح وانتشاء كبير.عسى قادم الأيام تحمل خيرا فيشتغل وضاح ويأخذ المشعل عن أبيه ويعوّض للعائلة حرمانها وينتزع فعل الزمن فيها .

ذاك هو حال أغلب العائلات محدودة الدخل يرون في حصول أبنائهم على وظيفة أقصى الأمل ومنتهى الغاية.وهم لا يَعْلمون أنّ تكلفة الحياة في مجتمع ينخره الفساد لا تُغَطّيها أكثر الوظائف عائداتٍ.فترى بعض أصحاب الوظائفِ الساميَة منْغرسين مع عامة المساكين في أكداس الملابس المستعْملة. ولا يصيبهم حرج. فهم يَعْلمون كما يعْلم النّاس أنّ اللّصوص وَحْدهم من يغْنمون ما تزْخر به ربوع وطنهم .ما عادت

الشهادات العِلْميّة معيارا به تُحدّدُ منْزلة الإنسان .فكم من جاهل يتحكّم في رقاب العلماء!

١١

مرت الأيام وبدأ وضاح رحلة البحث عن شغل. كان يذهب إلى المدينة صباحا ولا يعود إلا مساء . يتصفّح الصحف متابعا عروض الشغل فيها. في انتظار تمكّنه من الالتحاق بالوظيفة الحكومية التي طالما حلم بها .كان يعشق مهنة التعليم لِما فيها من قيم أصيلة وعادت به الذاكرة إلى الماضي عندما كان تلميذا بثانوية المدينة. تذكّر ما كان يلقاه من ظُلم من بعض أساتذته في ما يُعرف بظاهرة الدروس الخصوصية. كان يعتقد أنّ التعليم في بلده فقد تأنقه المعهود وأنّ بعضا من القائمين عليه حوّلوه إلى تجارة مربحة. لذلك كان يرغب أن يكون مدرّسا مثاليا يُسهم في إعادة الاعتبار إلى مهنة أُسيء إليها من طرف أبنائها. لا يهمّ وإن كان استثناء في ذلك. المهمّ أن يكون صاحب رسالة نبيلة والأهمّ بالنسبة إليه أن يخلق جيلا يكّرس فيه الفضيلة والمثل العليا.كان يعلم علم اليقين أنَّ التعليم وحده يبني أمما عريقة منغرسة بجذورها في الأصول ,ممتدّة بأغْصانها إلى العصر الحديث , ماثلة بفعلها في الزمان وأثرها في المكان بيّنٌ. الأمة التي تقدّس العلم وتُعلي منزلة المعلّم فيها تخْلق مجراها بين الأمم.كان التعليم في بلده يحتاج هدْما وإعادة تأْسيس بخلْق مدرّسين يُحِلّون مهنتهم محلّ القداسة من ذواتهم وينْأون بها عن كلّ ما يسيء إليها.ما فتئ يذْكرُ أنّ بعض المدرّسين يجعلون التّقييم متعلقا بالدروس الخصوصية أكثر من تعلّقه بما يُعْرضُ

داخل قاعات الدّروس .ولا يُنْكِرُ في المقابل أنّ مِنْ بين أساتذته من كان يُجِلّ وظيفته ويَنْغرِسُ بها في الفضائل والمثُلِ .هُمْ فوانيس للمعرفة تضيء دربها وإنْ قَلّوا.

تعاقبت الأعوام تباعا ومرت الأيام سراعا . ملّ وضاح الانتظار وأصابه إحباطٌ شديد. بضعُ سنوات من العمر مستنزفاتٍ وهو ينتظر دوره في الشّغل الحكوميّ. لطالما أحسّ بالذلّ وركِبه الهوان وهو يجوب المدينة بحثا عن المتاح من الشغل. فكان يتحاشى نظرات الناس إليه في مجتمع لا يرْحم. كان كبار أصحاب رؤوس الأموال فيه جهلة يجدون لذّة في تشغيل أصحاب الشهائد العليا بمقابل زهيد ولسان حالهم يقول "سلّم قرايْتك"

صادف أنْ التقى يوما بصديقيه هاشم وفواز بالمقهى العتيق فهما يعيشان ذات الواقع ونفس الأوجاعِ تدكّ حصونَهم.

تكلّم وضاح :

- أهلا برفيقيْ دربي . كيف حالكما ؟. لم أركما منذ زمان .

ردّ هاشم في حزن .

- أحمد لله على كل حال. كما تعلم واقع البطالة أشدّ مرارةً من أيام الدراسة.قَلَقٌ ينْخرُ وجسدٌ يهْزُلُ .

- لا اختلاف في ذلك. كنا متعلقين بأملٍ يدفعنا إلى العمل والاجتهاد , أملِ التخرّج بالحصول على شغل. وها نحن اليوم نراوح بذات المكان. لا أملَ ولا انفراجَ .

قال فواز في تأفّفٍ :

- انظر إلى باطن كفّي يا وضاح . لقدهرّأتْها المعاول والفؤوس وفعلت فيها فعلها . أقضّي أغلب يومي في اقتلاع الحجارة من سفح الجبل وأبيعها لأصحاب مشاريع البناء. ذاك الجبل الأصمّ أمسى أرحمَ من القائمين على أمر البلد.من بين فجاجه أعيل عائلتي وأصارع نائباتِ الّزمان.أيكون الصّخرُ الصّلدُ أكثر رقّةً من بني البشر أحْياناَ؟

نظر وضاح إلى السماء متسائلا :

- يا ربَّ العباد لقد أرهقتْنا ظروُف الحياة . درسنا وتخرّجنا وها نحن نشقى . أهكذا يكون حالنا في وطني ؟ أبمثلِ هذا الوضع ستسْتمرّ بنا الحياة ؟ فما أشبهنا بالأحْياء الأموات . إذا انْتفى فعل الإنسان في الوجود بطُلتْ حياته, ففي الكوْن حركة تَسْري تَكْفُرُ بالسكون وتأْبى الثّبات. كلُّ ما على الأرض مُتَحرّكٌ يحاكي حركة السّماء بما يسير فيها من أجْرام وكواكب.حتى الجبل الذي تَحْسبه ثابتا يا فوّازُ يمرّ مرّ السّحاب. إلاّ نحن فندور في حلقة مفرغة . عوْدٌ على بدْءِ فَعوْدٌ جديدٌ وبين الحركة بفعْلها الدؤوب والدوران بمقْته المريب فراغٌ دائم لا يملؤه القوْلُ. ألا ترانا أنْعاما تكْتفي بما تيسّر من كلإٍ وإنْ عسُرَ ؟

وبينما هم يتجاذبون أطراف الحديث توقفت سيارة فاخرة. ونزل منها رجل بدين تظهر عليه علامات الثّراء والبذخ. اِلتفت هاشم إلى صديقيه وقال متسائلا :

-ألا تذكرانِ من يكون ؟

صمت رفيقاه واسترسل في كلامه:

- هذا الرجل البدين الأنيق صاحب ربطة العنق و"السيجار" هو عبد المنعم. أبوه عبد الكريم المسؤول الجهويّ عن الحزب الحاكم . ألا تذكران أنّه كان كثير التغيّب عندما كناّ طلبة ؟ كان قد تمتّع بالإقامة في المبيت الجامعي طيلة أعوام دراسته, في حين حُرِمْناه نحن ولم نمكثْ به سوى عامين اثنين ؟

تعجّب وضاح وابتسم بعدما راودته الذكرى ونظر في عينيْ صديقيه بتمعّن وقال:

- نعم أذكر أنّه كان كثير الارتياد على المقهى المحاذي للجامعة يجلس لساعات يلاعب أصدقاءه النّرد. كان دائم الحضور في احتفالات الحزب بالعلب الليلية وأفخم النزل. لم يكن منشغلا بالدراسة تماما.ما كنت أظن أنّه مؤهل لنيل شهادة جامعية و يا لهول المشهد!

سحب هاشم سيجارة " بوستّة" من جيبه الداخلي وقد بدت ملتويةً.سوّاها وبيدين مرتجفتين أشعلها وراح يدخن. ثم قال :

- يا الله: ما هذا الفناء الغريب وهاته الغربة المفنية ؟ أقصى الغربة أن تكون غريبا في وطنك,ضائعا بين دروبه. إنّي أكاد أنتهي بروح تجبن أن تحيا في حضرة الحيْف والظّلم .في بلدي لا يجد أبناء الوُجَهاء والمقرّبين عسْرًا في النّفاذ إلى سوق الشغل بمنتهى اليسر. ينالون شتّى الامتيازات من سيارات ووصولات بنزين وأكل ومسكن و.....

تلك حال البلاد وهذه حقيقة العباد فيها . وما عبد المنعم هذا إلاّ عينةً من فساد كبير ينخر جسد الكيان الاجتماعي وأمثاله كثْرٌ. فهم كَمنْ أحظاهم الجدّ من غير فضل يعود إلى أنفسهم وقدّمهم البخت من غير معنى يقضي بتقدّمهم .

١٢

اِستبد بالأصدقاء قلقٌ مريبٌ. فلم يكن لقاؤهم وقدوم هذا اللّعين عبد المنعم إلا إثارةً للجروح وإحياءً للآلام وفي المخيّلة أسئلةٌ محرقةٌ غاب جوابُها.

نهض وضاح مستأذنا فقد نسي أنه قدِم إلى المدينة من أجل اقتناء دواء لأبيه الذي استبدّت به العلّة بعد عمر ُمضْنٍ لم ير فيه من الحياة غيرَ وجهها القاتم. وممّا زاد في علته شغفه بحال ابنه.كان يرمقه بطرف كسير متحسّرا على ما آلت إليه حاله.كُتِبَ عليه الشقاء منذ صغره ولا يزال له قريناً. لم يتمتعْ تمتّعَ الصغار ممّن هم في مثل سنّه وهو ذا اليوم يعيش واقع البطالة والقلق والانتظار.

مرّ وضاح بالصيدلية واشترى دواء لأبيه العليل. وعاد أدراجه. وفي ذاكرته تزدحم أخيلةٌ شتىّ إزاء مشهد المقهى وما سمعه وعاينه عن عبد المنعم وهمس مخاطبا نفسه :" أحسن أبوه اختيار الاسم عبد المنعم , اِسم على مسمىّ ارتبط اسمُه بالإنعام واسْم أبيه بالكرم . اِسْمان يجسّدان الوضع في وطني إذْ أصبحت الوظيفة تكرُمًا وإنعاما , هبةً توهب لمن لا يسْتحقّها ومجدا يناله غيْرُ أهله .

وصل وضاح إلى بيته. دارى حزنه وقال لأبيه:

- يا حاج: كيف الحال ؟أراك أفْضلُ.

نظر إليه مبتسما وقال في صوت تلفّه حشْرجةٌ :

- ربّنا كريم يا وضاح . لعلّه يكتب لنا الحجّ في ما تبقى من العمر. كنت أنتظر تخرّجك بفارغ الصبر عساك تكون لي سندا ولإخوتك عضدا.لكن ما باليد حيلة .

ردّ وقد أرهقه الألم :

- أبي: دعْك من الخوض في مثل هذا الحديث الموجع. وضْعك الصحيّ أهمّ. اِستعدْ عافيتك وعُدْ إلى سالف نشاطك. للشّغل أوانه

كانت الأم منشغلة بما دار بينهما من حديث وهي تقلّب رغيفا على التّنور. بدت عليها علامات عناء ووجع دفين. التفتت إلى وضاح وقالت :

- ألا تأخذ أباك إلى المشفى العمومي؟ حالته الصحية تسوء يوما بعد آخر . خارت قواه وفقد سالف حيويته . عجّل بنيّ قبل فوات الأوان .

ردّ وضاح في تنهّدة طويلة :

- نعم أماه . ذاك ما سأفعله. كنت منشغلا بتجديد دفتر العلاج منذ أسبوعين تقريبا. ولم يبْق من الوقت إلّا قليله لإتمام الإجراءات .

ظّل وضاح يهرع يوميّا إلى المشفى ليحصل على موعد .وقد تمكّن بعد عناء كبير من حمله لإجراء ما يلزم من فحوصات . اِستند أبو بكر إلى كتف ابنه وأدخله إلى قاعة الفحص . تمعّن الطبيب في جسد المريض الذي أنهكه الهزال وطالب الممرّضين بإجراء ما يلزم من تحاليل مخبريّة. ووضاح ينتظر خارج مكتب الطبيب . بعد ساعة فُتح الباب. ونُودي وضاح وقيل له:

- أبوك يحتاج عملية جراحية مستعجلة. بادرْ إلى حجز موعد في القسم الخارجيّ.

أخرج أباه وتركه مستندا إلى جدار الحائط وهرول مسرعا إلى قسم العيادات الخارجية. سلّم الملف الطبيّ إلى العون. نظر فيه. تنحْنح بعدما استلقى على أريكته وقال :

- مثْلُ هاته العمليات دقيقة جدا والمتقدمين إليها كثْر . ما عليك إلّا الانتظار لأشهر .

- لأشهر .....لأشهر؟ أخبرني الطبيب أنّ حالته حرجة والتدخّل الجراحيُّ يجب أنْ يكون استعْجاليّا. كنت أتوقّع أن تُجْرى العمليّة في أقرب حينٍ.

علتْ قهقهة "صالح " عوْن النافذة غير عابئ بآلام الناس الحَيارَى. لْؤم وخسّة لا نظير لهما وقال مستهزئا:

- انتهى دوْرُ الطبيب عند التشخيص. أمّا تحديد المواعيد فهو مهمّتي. إنْ كنتَ حريصا كلّ هذا الحِرْص فما عليك إلا التوجّه إلى المصحّات الخاصة. ستُجْرى عملية أبيك في أوانها. المهمّ أنْ تدفع الدراهم.

تنهّد وضاح وعبس وجهه لعِلمه أنّ المصحّات الخاصة جِدّ مكلفة, وأنه لا طاقة له بها. فهي ليست من نصيب المعذبين في الأرض , الهائمين على وجوههم .

اِمتدّ بصره يرقب رجلا تسلّل دون انتظار دوره في طابور المنتظرين. تقدّم من النافذة. وخاطب صالحا مسؤول النافذة قائلا:

-أهلا بالمدير لو تسمح. لي معك حديث على انفراد .

خرج صالح وأوصد الباب وعيْن وضاح لازالت للمشهد راصدةً. تقدّم الرجل من العون بعد ما أخرج من جيبه مبلغا ماليا ورقيا ووضعه في يده موهما بمصافحته وقال:

- دعْنا نراك يا رجل. أنَسيتَ ما كان بيننا من ودّ أيام الدراسة ؟

- وهل مثلك يُنْسى؟ أنت بالقلب. تفضّل متى شئت . اعذرني ولا تلم فهي ضغوطات الشغل والواقع . أمّا أنت فإنّك فلاح تحّررت من أسْر هاته الجدران .

كان كلّ هذا الحوار تمويهياّ لصرف الأنظار والأذهان عمّا حصُل غير أنّ فطنة وضاح كانت أسبق.

فهم الشابّ ما يُحاك داخل أروقة الفضاءات الصحية العمومية. وانسابت دمعته على خده قهرا وحنقا . ما عساه يفعل وأبوه يتألم ؟ لكن ذلك حال المغلوبين على أمرهم والذين طالت معاناتهم . وتلك صورة واقع البلاد المقيت .نسمع كثيرا عن الصحّة المجانية والتعليم المجاني ولا نظفر بغير الكلم.

في الأثناء عمّ الغضب أرجاء البلاد خاصة في المناطق الداخلية المحرومة. وهي ثغور لا نصيب لها من الشّغل إلا فتاته, ولا من التنمية إلا نزْرها القليل, ولا من العناية إلا أدناها.كان غضب الفئات المنسحقة يتزايد يوما بعد آخر فهم يرزحُون تحت وطْأةِ الضرائب وغلاء المعيشة وعوز الطعام .لا ظلامَ ينْجلي ولا صبْحَ قريب .خوْفٌ من الآت مطبقٌ وصمْتٌ مريب.أليْس الوطنُ أمّا يجتثُّ أبْناءه إذا ما أشتد عسْرُ الزّمان والظّرف عصيبٌ؟

كان وضاح مطرِقا في شأن أبيه. وكيف سيهتدي إلى حلّ ينهي أزمته. فقّرر أن يضاعف جهوده في العمل حتى يوفّر مبلغا يقارع به مرض والده. نهض باكرا. وقصد المدينة للعمل بحضائرالبناء. تتسارع أنْفاسه .يتصبّب جبينه عرقا. ما عاد

يشغله هاجِسٌ غير بُرْءِ أبيه.كذا شأْن كلّ الفقراء فهم وإنْ سُلِبُوا أدْران المادّة وزيْفها لم يُسْلَبُوا حرارة العاطفة ونبْضَ الشعّور. يزْداد التّلاحُمُ بيْنهم كلّما كان الأمْرُ عصيبا. فوضاح ما انْفكّ يذكُرُ يوْماً مِنْ ذكْرى الجامعة أليما . عندما كان أحد الطّلبة يحْتسي "جعّةً" مع إحْدى بائعات الهوى في السيارة الفاخرة التي يقودها وأبوه يصارع مرضه الخبيث محْتضرًا .ولّم يجِدْ قرْبه من يلقّنه الشهادة حتى فاضتْ روحه وابنه لا يزال في الغواية يرْتعُ. المال لا يصْنع المروءة وإنْ كثُرَ .المروءة يكْتسبها من وطّن نفْسه على الإحسان وجبلها على الفضْلِ ونأى بها عن الزّيفِ والخسْران. أقصى السعادة أن تُعانق سكينتك وهدوءك وإن قلّ مالكَ. وأقسى شعورك أنْ تكون ذا جاه ومال وسلْطان وأمواج البؤْس تتقاذفك ورياح الحيرة تستبدّ بك ليكون شرودك ونفورك.

بينما كان منهمكا في شغله وقد علا شعره غبارٌ رمادّي قاتمٌ سمع أحد العملة يتحدث عن خطبة صالحة ابنة مدير المؤسسة التربوية المجاورة. وكيف تقدّم يطلب يدها مهندس ثريّ يشتغل بإحدى دول الخليج العربي وأنّ موعد زفافه بها الصائفة القادمة.

لم يستوعبْ ما سمع. ظنّه حلما مزعجا . لم يقْوَ على الوقوف لهوْل ما تناهى إلى مسمعه. تمدّد على الأرضية المبللة بالأتربة وبقايا الأسمنت والرّمال. دنا منه صاحب الحضيرة

وهمس إليه " أنْ عُدْ إلى بيتك حالما تتحسّن حالتك. يبدو أنك مريض ".

نهض مهموما متثاقلا. وقصد الحيّ الذي تقطنه صالحة . انتظر لساعات خروجها لكن دون جدوى . ما عساه يفعل. ولا حيلة تمكّنه من الذهاب إليها . تاه فكره وضلّ سبيله غير أنه ظلّ يرقب الباب عساه يُفتح . بينما هو كذلك لمح جارة لهم تطرق الباب وبيدها طبق هدايا.خرجت لها فتاة متأنقة وفتحت لها الباب.أسرع وضاح مناديا "صالحة, صالحة" التفتت إليه متجاهلة هذا النداء الذي يقرع سمعها من بعيد.تقدم منها. تعرّفت إليه فتسارعت دقّات قلبها وانْحبسَ ريقها .حسِبتْها لحظات من الزّمن ولّتْ وقالت متلعثمة:

- وضاح عشر سنوات مرّت ولم تكلّف نفسك عناء السؤال ؟

- أنت تعلمين حقيقة الوضع الذي فيه أعيش. معاناة بطالة. أب مريض يعاني جسده علة أقعدته. قولي أصحيح ما سمعت؟

- انتظرتك طويلا حتى خلْتك غادرت حياتي.ثم إنّ أبي حريص على تزويجي من ابن صديقه . أبديت رفضا لكنني استسلمت أمام ضغوطات عائلتي . كما تعلم فعمر الفتاة كلّما تقدم يسْلب منها فرصَ الزواج. وأنت يا وضاح هل ستقدر على الزواج بي وحالتك تلك؟ حتى وإنْ أبديتُ موافقة حتما عائلتي ستعارض وبشدة. أبي يؤمن كثيرا بالمظاهر وأمي شغوفة بآخر صيحات الموضة .والمهندس الذي تقدم لي كثير العطاء .عشنا مرحلة طلابية تغلب عليها العاطفة واليوم وجب التفكير بالعقل. هل

سأقبل بك زوجا وأنت عاطل عن العمل ؟ هل تملك منزلا وسيارة؟ هَلْ ستأْخذني في رحلة إلى" أبْراجِ دُبيْ " أو إلى "سور الصّين العظيم" ؟ مَن تقدّم يطلُبني وعدني بزيارة كلّ العالم .أمّا أنت فكيْف ستتولّى أمرنا وهل ستجد للحياة سبيلا غير سبيل ما أرى الآن ؟

تراجع وضاح وعاد أدراجه فصالحة لم تتركْ له مجالا للردّ. رأى أنّ كلامها يقين لا ينتابه شكّ. ودون أنْ يودّعها غادر مطأطأَ الرأس, كسيرَ الخاطر, مهيضَ الجناح, كليمَ القلب.

صالحة التي أحبها بطهر القرويّين وصفائهم تكون من نصيب غيره ممّن يفوقه منزلة ومالا. ذاك هو مصير أكثر من قصّة حبّ تبدأ بنَهَم وشوقٍ وتنتهي بانكسار وخيبة. مراسم الزواج في وطني مكلفة جدّاً في مجتمع أعمتْه المادة وتكالب على أدرانها . فكمْ من أب يرغم ابنته على الزواج من شيخ طاعن في السنّ لأنه ثريّ ! فيُعدم شعورها مع منْ تحبّ . وكم من فتاة تتنكّر لحبيبها وهو الرجل الشهم الأبيّ بمجرّد ما تجد له عِوضا يكون مترْفَ الحال! لابد أن تُقام صلاة الجنازة على شعور بعض الناس ممّن يتوضؤون بالخديعة ويتطهرون بالنفاق.ممّن يروْن الحياة بعين المصالح والأغْراض.وممّن تهون عليهم نفوس من عشقِوا. فأعْرضوا عنْهم وهم منكرون.

١٣

ضاقت الأرض على وضاح بما رحُبت. وهام على وجهه في دروب الدنيا. عاد إلى عائلته صامتا واجما. ثم تمشّى في الوادي

المحاذي للجبل الباذخ. افترش الرّمال. وتذكّر صباه عندما كان يرعى الغنم . ودّ لوْ أنّ الزمن توقف به هناك. وتوجّه إليه بالقول معاتبا :

- آه يا زمن لِمَ حملت الأيام على احتضاني بكل قوة كما لو كنت غريبا بين أبنائها ؟ كنتُ صبيا يتحمل مسؤولية على حداثة عهده بالدنيا. صرتُ شابا تضاعفت مأْساته . فعانقت ذروة تأزّمها . لا الفتاة التي فتنتْني حبا وشغفتها عشقا كانت لي . ولا الشغل أتيح لي ولا العلّة فارقت جسد أبي ...يا زمن أدميت قلبي فسئمت تفاصيل الدنيا بما فيها .

نهض ساخطا. صعد إلى الجبل.كان فعل الصّعود يعني له الكثير.كان يرى فيه اعتلاء وانتشاء ولسان ُحاله متعلق بما كان يردّده " ومَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعشْ أبد الدّهر بين الحفر."

كان صبيا مفعما حيويّة وصلابة. وهو اليوم بنفس المكان ما عاد الصعود يعني له شيئا. فاستوت عنده القمم والمنحدرات. أعْمى الحنق بصيرته. فانتفى الفرق عنده بين الأنوار والظلمات. رفع رأسه إلى السماء. بدت له منطبقة على الأرض. فما عادت الجبال لها أوتادا. طلّق زمنه الموضوعي. وهام بزمن ذاتيّ نفسيّ تتحدد ردهاته بصدى الذات وإرهاصاتها الباطنية .

نزل من قمّة الجبل إلى سفحه. واتجه إلى البيت ليجد أباه يتضوّر ألما. فقدتْ كلُّ الأماكن قداستها. فأمستْ مصدر شقاء ومعاناة. صار أبوه لا يقوى على الوقوف بعدما طالت به العلّة

وسكنت جسده وتسرّب الألم إلى مفاصله. شحُب وجهه وغارت عيناه وكأنّه إلى نحبه يصير .

في الأثناء اِشتعلت الاحتجاجات. وعلا صوت الغضب وهتفت الحناجر منددّة بما آلت إليه حال البلاد من ظلم واحتكار.كان وضاح يتابع نشرات الأخبار متنقلا من محطة تلفزية إلى أخرى. كان يرى في قنوات البلاد تهوينا وتلطيفا, في حين يرى في غيرها من القنوات الأجنبية تهويلا وتضخيما .

تتابعت المشاهد وكل العائلة مشدودة الأنظار إلى صور الحرْق والتّدمير والإغارة على المحلات التجارية في مواجهات تشهد كرّا وفرّا بين الشباب العاطل وبعض المندسّين من اللصوص من ناحية وبين القوى النظامية. هتفت الأم خديجة :

- ما كلّ هذا التدمير ؟ أهكذا صارت حال البلاد ؟ أعُدْنا إلى زمن الصّعلكة والإغارة على ممتلكات الناس ؟

- أماه طفح الكيل بالشباب المعطل فلم يعدْ يرمُق بصيص أمل يهتدي به .وضجّت العامّة " أنْ قد غُلبْنا على أمرنا".

- يا بني إنه الوطن نراه ينهدم بأيادي أبنائه. يا الله لطفا بهذا البلد .

تدخّل أخوه محمد وكان ميّالا إلى الصمت . تكلّم بهمس وكأنه يخاطب نفسه :

- ما قيمة وطن نعيش فيه ونعْرى ؟ أمَا آن للوضع أن يتغيّر. ما الذي سنخسره أمّاه ؟ لنْ يصيبنا أسوأ ممّا نحن فيه.

قاطعه وضاح بصوت عال وقد استشاط غضبا :

- في وطني يموت المنسحق كمدا . ألمْ يُحْرَمْ أبي العليل من حقّه في العلاج المجاني ؟ وهاهو اليوم يموت في صمت مطبق ولا حول لنا ولا قوة.أيوجد ُبؤس أكثر من هذا ؟

كانت خديجة تحبّ الوطن وتعشقه فهو بالنسبة إليها التربة التّي تشكّل منها جسدها وجسد من سبقها من أجيال تعاقبت على مسرح الحياة.هو الجبال والأودية والمنحدرات والهضاب. وهو السّماء التي تحت قبتها تعيش ,و إنْ نفذ القوت وعزّ الرغيف.

كذا همْ فقراء بلدي.هم أكثر الناس خوفا على الوطن. لا يخدعونه وإنْ كثُر الإغراء وتضاعف الرّهان. لا يتوانون في المحافظة عليه وإنْ أظْلم المكان ومكر الزّمان.عكس بعض المترفين والوجهاء هؤلاء دراهمهم ومكتسباتهم وبروجهم تعلو على الأوطان . إنهم أّسّسوا أوطانا داخل أوطان.

اِشتدّ وجع الأب وكان الليل حالك السّواد مدلهمّا. لم ينمْ أفراد العائلة بعد أنْ علا أنينه.قطع وضاح الوهاد والجبال في جنح الظلام ولمّا يتنفس الفجر. وصل إلى المدينة المشتعلة فوضى واضطراباتٍ . بحث عن سيارة يؤجّرها .توسّل إلى صاحبها وحدّثه عن وضع أبيه الحرج. فرافقه إلى حيث قريته ومنها إلى المشفى والأب في حالة إغماء . كان المكان

يعجّ بالناس يبدو أنّ هناك عديد الجرحى والمصابين في المواجهات الليلية.أرضيّة المكان بها بقايا دم قان. علا صياح الناس وعويلهم بعدما قضى بعضُ الشباب نحْبهم وعانقوا مصيرهم .

كان وضاح مستندا إلى جدار لطّخته الدماء مطرقا ساهما واجما . ناداه المسؤول عن القسم الاستعجالي . اِضطرب قلبه . تسارع نبضه.توقّع الأسوأ تقدم منه وقال :

- وضاح :إنّ الموت حقّ .فأبوك كان في مرحلته الأخيرة من علته يصارع مصيره .ولم يتمكن الطاقم الطبي من إسعافه. البقاء لله.

علا صوت وضاح :

- يا أيتها الكلاب المسعورة . يا من تعلو في أذهانهم قيمة أدران المادة على آدميّة الجسد وقداسة الروح .أبي مات من قبل أشهر في هذا المكان اللعين فلمّا جاءه الموت اليوم لم يجدْ لديه ما يميته. لقد مات ألف مرة قبل غيابه الأبديّ .

واندفع بكل قوة يصيح :

- أين الوغْد صالح, صاحب تحديد المواعيد.أريده حيا أو ميّتا. أين أنت يا قاتل المساكين؟.اخرج عليّ إنْ كانت لك ذرة كرامة.

لم يكن "صالح" في المشفى .فقد كان من بين رؤوس الفساد . اِختفى مع اندلاع جحيم الاحتجاجات شأنه شأن بقيّة المتورطين في امتصاص دماء الشعب المقهور .

عاد وضاح يحمل نعْش أبيه. كان مهموما غائما كسماء خريف. فهذا والده الذي طالما شقى بتعلّم اِبنه. حرم نفسه وأغدق عليه. يموت دون رؤية مبتغاه ومرمى فعله . مات وفي المخيّلة تزدحم آلاف الأسئلة عن الذات وهي تشقى في دروب الحياة تحمل كربها وتواري ألمها.

كثيرون هم من يقتلهم الشقاء وتسلبهم الأيام جمال الحياة. قليلون هم من يتمتعون بجنّة الوطن . وبين الحالتين حكايات ودموع وفراق وألم .

تمدّد جثمان الأب الطاهر بين أفراد أسرته .وتهافت الجيران لمّا سمعوا بكاء وعويلا. أمّا خديجة رفيقة دربه فقد غلبتها الدموع واحمّرت مآقيها وهانت عليها الدنيا بمن فيها. ما عاد شيء بالحياة يُغريها. تمنّت لو أنّ الموت يأْتي فيُفْنيها. فقدت سندها الذي طالما آزرها وأحسن إليها .فاليوم لم يبق لها شيء عليه تُحاذِرُ.

لطمت وجهها والنّعش يغادر. توافد الناس على المقبرة. صُليت صلاة الجنازة والصّمت للأرواح يُصادر.
أصرّ وضاح أنْ ينزل أباه إلى القبر. ودّ لو كان مكانه. تقطّع قلبه .تمزقت جوارحه. تراءى له القبر حياة أخرى فيها يسكن الجسد وتخمد الروح . فيها تندمل كل الجروح بل لعّل فيها ما لا

تسعه حياتنا. وضاح يرى الدنيا بعد موت أبيه قبرا للذات فلا أمل يحدوه ولا حضن يؤويه.

تساقطت زخّات من قطْر السماء متتابعات. ووضاح لا يزال ماثلا بجسده في القبر وباطنُ نفسه يقول: " السماء تبكي لبكائي. شاركيني يا سماء أحزاني بعدما عّز عليك تجسيد أحلامي"

جذبه صديقه فواز. عانقه والتقتْ أعينهما في صمت تستعيد حكايات الأيام والليالي. وانسابت مآقيهما دمعا مدرارا.

١٤

خلتْ المقبرة فعانقت وحشتها بصمْت موتاها ولم يُسمعْ لها غيْرُ أنين ينبعث من باطن الأرض. عاد وضاح إلى البيت . لم ينم ليلته وكغير عادته راح هائما على وجهه بين أودية القرية وجبالها .ناظرا في النجوم علّه يرى نجما يرنو إلى نجمه الذاوي. وصل إلى المقبرة التي وارى فيها حبيبا .توسّد قبره وراح يبكي بكاء مرّا . عانق القبر كما يعانق الأحياء من الناس. مرّغ وجهه على تربته وراح يقول " خَلَس الزمان أعّز مختلَس ويد الزمان كثيرة الخَلس ."

اِنسكبت دموعه على ذقنه وأمعن في قوله :

"نم يا حبيبي فليس في الحياة ما يستحقّ الحياة و ما موتك إلا بداية المآسي والأحزان واأبتاه....عشتَ محروما وقضيْتَ مغبونا بخلوا بالعلاج عنك فأماتتك العلة ولا يزال بعضها ينْخر كياني

يدميه.اللّهم بحقّ من ظُلم فصبرْ. بعزّة كونك المسبّح بحمدك والشّجر .انتقم لنا من الظالمين وأيّد بنصرك المقهورين " وقصد بيته .

خيّم الحزن على العائلة أياما . لكنَّ تزايد أعداد القتلى في احتجاجات الليلة الفارطة خفّف عن العائلة حزنها . لقد قضى شابان في مقتبل العمر أحدهما يشتغل أستاذا بفرنسا كان في إجازة بين أهله أصابته رصاصة وهو في طريق العودة من بيت أصهاره. فبأيّ ذنب قُتل ؟ أمّا الآخر فهو شابّ حديث العهد بالجامعة تخرّج منذ سنتين. خرج مشاركا في الاحتجاجات الليلية. اِندفع بحماسة الشباب الناقم فاستقرت الرّصاصة في قلبه المفعم حياةً فأعدمتها وظلّ ينزف لساعات ومات نداء الحياة فيه .

كلّ هاته المشاهد أنْستْ العائلة مصابها لتعود الأمّ إلى الاشتغال في الضيعات الفلاحية . سكان القرى لا تعنيهم الأحداث الطاحنة فهم في صراع دائم مع قساوة الطبيعة وفي حرب ضروس مع متقلّباتها ومتغّيراتها . يصارعون من أجل قوتهم اليومي .

كان وضاح ينزل يوميا إلى المدينة بحثا عن عمل يعيل به عائلته. فتراه ينتقل بين أرجائها معاينا حجم الخراب ببعض المحلات التجارية التي تعرّضت للسطو.أنهج تقطع الحجارة ممرّاتها.إطارات مطاطية مشتعلة وروائح دخانها تنبعث خانقة. مقاعد اسمنتيّة على الأرصفة طالها الخراب والعبث .أشجار

تحتفل يانعة تدلّت أغصانها منكسرة تنْزف. اِستغرب قساوة المشهد. التقى صديقه فواز مصادفة فقال :

- أرأيت سلوك الهمج المخرّبين ؟ أبالخراب والدمار والفساد نعبِّرُ؟ألا يوجد جِسْرٌ آخر للغضب عليه المحتجّ يعْبرُ؟ أنهْدم أوطاننا بأيدينا ثم نبقى ننتظر بذلِّ منْ يأْتي من الدول الأخرى فيبْني ويعمّرُ ؟ لمْ أر في هذا السلوك غير وطن يحتضر وجهده يقْصُرُ.إنّ عقول المخرّبين تاهت في غرائزهم. وعجزهم بيّن للغوْرِ ليْس يسْبِرُ. أكُتِبَ عليْنا أنْ نعيشَ جاهليّة في تاريخنا ثمّ نسْتعيدها اليوم بجهدِ لا يفْتُرُ؟ أيّ ذنْبِ اقْترفه منْ سُلبتْ محلّاتهم ونُهبتْ أرْزاقهمْ؟متى كانت الحرية تُنحت بأيادي اللّصوص والخونة ؟

- يا وضاح : إنّ جوع النّاس لا يعترف بحريّة ولا يستند إلى قيم ألمْ يكد الفقر أن يكون كفرا على مرّ العصور ؟

- أأنْتَ المثقف خريج الجامعة الذي أعرف ؟متى كان الفقر مبّررا لانقلاب القيم ؟ ألمْ تسمع كلام الله "(منْ كانَ فقيرًا فليأكلْ بالمعروِف) "

- بلى أعرفه وأعرف ما قبْلَه "(ومنْ كَانَ غنيًّا فليسْتَعْفِفْ").لكنْ أجبْني : هل اسْتَعْفف الأغنياءُ حتى يأكلَ الفقراء بالمعروف ؟ وهل تركوا للمعروف وجها يناله المنسحقون ؟ لوْ استعفف أولئك لأكل هؤلاء بالمعروف .ألا ترى أنّ محنة البلد سببها المترفون الذين أسّسوا ترفهم على أوجاع الآخرين ؟

اِبتسم وضاح وقال في تعجب :

- عهدتك متوقّد الذكاء. تبريرك لا يُدْحَضُ. لكن ْنسأل الله اللّطْف بالبلد في محنته.

اِفترق الصديقان على أمل اللقاء. وعاد وضاح إلى البيت وهو يترقب مآل الأحداث. تحلّق أفراد الأسرة أمام جهاز التلفاز . خبر عاجل أذيع منذ قليل :"يُحْضَرُ التجوّل ليلا " بلغ السّيل الزُّبى. ما عاد النظام يحتمل شراسة المواجهات الليلية .أتصوّر أنّ أمرا يحاك. وماهي إلا لحظات حتى أُعْلِنَ عن فرار الحاكم .

- يا لَهوْل الخبر! إلى أين نحن سائرون؟ " هتفت خديجة "

تدخّل وضاح مهدّئا من روعها وقال مازحا :

- ليست لنا مصانع وأملاك حتى يتملّكنا الذّعر .

تمعّنت فيه وهتفت معاتبة :

- المصانع والممتلكات أهمّ عندكم من الوطن. يا للخيبة !الوطن يا بنيّ لا يهون وصدق من قال:" حاكم ظلوم خير من فتنة تدوم."

- أمّاه: إنّي أقدر قيمة الوطن. فهو كمجرى النفس منّي. لكنْ ما قيمة وطن يعيش فيه العفيف ُمعْدما والمتهّور منعما ؟ما جدوى الوطن إذا ما لم يحتضن أبناءه ويجري حكم العدل فيهم ؟ أليست ما آلت إليه حالنا نتاج القهر والظلم ؟

١٥

تعاقبت الشهور وانتقلت العدوى إلى بعض البلدان العربية الأخرى .عمّ القتل والفوضى. ظل وضاح يراقب الوضع ببلده بعد الانتفاضة.حكومة عقب حكومة وحاكم تلو حاكم ولا شيء يتغيّر. بلْ قد ساءت الأوضاع وتضاعف اليأس .تزايدت المطلبية فلا الشعب صبر ولا الدولة تمكنت من الاستجابة للطلبات المتزايدة . عّمت الفوضى. هذا طريق يُقْطع, وتلك محلّات تخلع وعصفت الاضطرابات بهدوء الوطن .

أيقن وضاح أنّ خوف أمه على الوطن له ما يبرّره. هي حكمة الكبار يجهلها الصغار. يا لخسارة الدّماء التي سُفكت فارتوت بها تربة الأرض ؟ يا لخيْبة المسعى ! أهكذا تكون نتائج الثورات المزعومة ؟ حتما إن الثورة الحقيقية ينبغي أن تكون في عقول الناس فتنتزع ما فيها منْ وهن وجهل. كلّ ثورة على الأرض وجب أن تُسْبق بثورة على مستوى الفكر تَنسف مظاهر التخلف والظلامية فتعيد إلى الواقع صفاءه وإلى الإنسان جوهره.

ضرب وضاح موعدا مع صديقيه هاشم وفواز بالمقهى العتيق وتجاذبوا أطراف الحديث بين ماض يحنّون إليه رغم إرهاصاته وحاضر لم يعد لهم ومستقبل يلفّه الغموض وتكتنفه الضبابية.

صاح وضاح بالنادل :

- يا علي: أريدها قهوة سوداء داكنة دون سكّر كأيامنا هذه.علت ضحكة النادل ورد في هدوء :

- تريدها بطعم الأّيّام ..حاضر

اِلتفت وضاح إلى صديقه وسأله في شبه حيرة :

- يا هاشم ما جديدك. لقد مرّت أشهر على لقائنا الأخير .؟

رمقه بنظرة حادة وقد أخفى شبه ابتسامة غامضة :

- لوكان عندي جديد ما رأيتني معك الآن.الأيام تفرّق بين الأخوة فما بالك بالأصدقاء ؟ ما يجمعنا هو الفقر والإحباط وذات الانتماء إلى الفئة المنسحقة .

دوّى صوت فواز وسط الحاضرين :

- لقد ساء الوضع أكثر ممّا كنّا نتوقع . اِزداد الأغنياء غِنًى والفقراء فقرا. يا لَهول المفارقة ! خرج الفقراء والمعطّلون. هتفوا وضجّوا . منهم من سُجن ومنهم من عُذِّبَ وما "بدّلوا تبديلا."ثم نال الأغنياء جزاء تضحيات المنسحقين .

رد وضاح وقد احمرت وجنتاه واغرورقت عيناه :

- تلك هي المأساة التي جعلتني لا أعي ما يدور بالساحة. أحاول أنْ أفهم فيرتد فكري حسيرا . ثورة شباب مهمّش تحدّى الموت كأنهم يعملون بمبدأ " احرصْ على الموت توهبْ لك الحياة " دفعوا حياتهم قربانا لها وغنمها الانتهازيون الذين كانوا

يراقصون عشيقاتهم في الملاهي الليلية .عندما انتفض الشباب كان هؤلاء متأكدين أنّ الغنائم ستكون من نصيبهم. أتراهم يفرطون في جنّتهم بهاته السهولة ؟

١٦

هذا واقع البلاد منذ أعوام لم يتغير بلْ ظلّ على ذات الوتيرة ولم تشرقْ شمسه بلْ غرُبت وأفلت وانتفى الأمان. ما عُدْتَ تأمن على نفسك في أي مكان. تفجير هنا واغتيال- في وضح النهار- هناك . تهاوت حدود البلاد واختلطت الأغنام بالذئاب . كم من بريء راح وغاب وكم من شيطان تاب وآب ؟

اِستبدّ القلق بوضاح فأبحر بنقاله في العالم الافتراضي . صار من عشاق "الفيسبوك". دوّن تعليقا عن وضع البلاد وما أصابه فيها من يأس وإحباط. فأثارت تغريد ته إعجابا لدى المبحرين. وتهاطلت عليه دعوات الصداقة وكان من ضمنها موقع لشخص ُيدْعى" أبو لقمان"" أمير دولة الإسلام بالعراق والشام. تواصل معه أكثر من مرة. تبادلا وجهات النظر حتى تدعمت صداقتهما فكان الحوار على " الماسنجر":

- مرحبا بك في دولة الخلافة يا وضاح. نحن دولة إقامة العدل وتحكيم الشرع. لا نترك أصلا إلى فرع .

- نحن في حاجة إلى دولة تعدل بين رعاياها. تؤمّن لهم حياة كريمة وتدفع عنهم الظلم والقهر .

- لطالما حلم الناس بحكم الخلافة الرشيدة.ستستعيد الأمة عنفوانها ومجدها التليد . سنجعلها تمتد من المحيط إلى الخليج.

- أين تقع دولتكم يا أبا لقمان ؟

- دولتنا بصدد التحقق.لنا فيلق جهاديّ في كل إمارة إسلامية مهمته التمهيد لإرساء دعائم الدولة .

- وما وجه استفادتي من دولتكم ؟ هل سيتغيّر حالي ؟ أيمكنني الحصول على شغل بدولتكم؟

- هههههه : في دولة الخلافة تنال وظيفة مرموقة وأنت الشاب المتعلّم . وإنْ لم تكن متزوّجا نزوّجك بمن تريد وتنعم بما ملكت يمينك. وفي خلافتنا تستحيل حياتك رخاء وسعادة وتنسى شقاءك في دويلات الكفر والديمقراطية الزائفة .

- يا أبا لقمان: أثرت شوقي إليكم. كيف يمكنني الالتحاق بكم ؟ في وطني ما عدت أحفل بالحياة.سئمت وجودي بين المنافقين والظّلمة . أودّ أن أغادر حيث يشعّ نوركم .

- طبعا, ومن يستطيع أن يردّ لك طلبا. ما عليك إلّا الالتحاق بالحدود الجنوبية لبلدكم. ستجد أحد عناصرنا في استقبالك يُدعى " أبومصعب. " لكنْ دعنا نتّفق على كنية لك حتى لا يُتفطّن إلى أمرك فيحرموك من تشييد حلمك التاريخيّ.ما رأيك في كنية "أبو الليث"؟ أظنّها تناسبك لشجاعتك وثقتك وبأْسك الشديد. نحن نفتح لك أبواب دولتنا على مصراعيها. عجّل فنحن بصدد

تحرير الأقاليم العربية من الطغاة المستبدّين. سندْحرهمْ إلى حيث لا يرْجعون. سنجتثّ نسْلهم عن بكْرة أبيهم .

ثم أمدّه برقم جوّال " أبي مصعب " وأكد له على ضرورة توخّي الحذر أثناء التكلم. وأطْلعه على كلمة السّر حتى لا يتمّ رصده.

هامت مخيّلته في ما يمكن أن تكون عليه حياته بعد الالتحاق بدولة الإسلام.داعبته أمنياتٌ خفاف لطاف ولسان حاله يقول:

- شغْلٌ وزواج وعدل, لنْ أطلب أكْثر .لم ألْق بوطني غير المآسي والخطوب.تتعاقب عليّ نائبات الدّهْر ولا أمل في الأفق. العمر يمرّ مرّ السحاب .إلام الوجوم والحزن والفقر المستديم ؟

لن تخسر شيئا إذا ما غامرت يا وضاح.ألم يُغامرْ مكتشفو العالم في مجهول الكون وما خمد سعيهم؟ لن تستقيم الحياة دون مغامرة ومخاطرة.ليس عهدي بدولة تتبنى الإسلام أنْ تخلف وعدها.إنْ لم أجد ما يُشفي غليلي ويُذْهب فقري سوف أعود أدراجي .

لم ينمْ ليلته وأطرق يفكّر بحيلة يواجه بها أمّه ويقنعها بذهابه. أوهمها من غدِهِ أنه سيسافر مع صديقه إلى الجنوب للعمل في شركة مقاولات بأسعار مغرية . ما كانت لتَصُدّه وقالت كلمتَها المعهودة :

- فتح لك الله أبواب الخير بنيّ. توكّل علي الله.

لم تكن المسكينة تعلم أنها سلّمت بكرها إلى المجهول. فهو سيسافر بآسم مستعار, متستّرا كما خفافيش الظلام.

نهض وضاح باكرا. واصطحب معه بعض الأغراض وأوراقه الشخصية بما فيها شهادة تخرّجه. وغادر البيت بعدما قبّل أمه وأوصى إخوته بضرورة العمل إلى حين مجيئه.

وصل المدينة واستقلّ حافلة إلى الحدود الجنوبية حيث تدور مواجهات في البلد المجاور الذي أصابته عدوى الفوضى والاحتجاجات . بعد سويْعاتٍ حلّ بها وجلس في المقهى ينتظر مكالمة من " أبي مصعب". وهو يترقّب أحسّ بوحشة غريبة. بدا له المكان قاتما في هاته المدينة. حركة بطيئة. جوّ غائم. دخانٌ كثيفٌ يتصاعد من بعض مواقع الدولة المجاورة وراودته أسئلة أقضّت مضجعه وقطعت سكينته :

- "ترى هل سأجد في دولة الإسلام ضالّتي المنشودة؟ أيُعْقلُ أن أترك عائلة هائمة رابضة بين الجبال والأودية وأنا وليّ أمرها بعد فقد أبي ؟ أيجوز أن أربط مستقبلي بعلاقة افتراضيّة لم تتحْ لي المعاينة ولا التثّبت؟

لكنه سرعان ما يهتدي إلى أجوبة تطفئ ناره . يحدث نفسه حديث الواثقين :

- "ما وجدت في وطني سبيلا إلى الحياة.عشت من الزّمن حقبتين قبل الثورة وبعدها.شيء لم يتغيّر . لا نورَ في الأفق. كنت طالبا متميّزا لطالما حلمت بالتخرّج والعمل فلم يكن لي ممّا

تمنيت سوى الحلمِ والوهم ِوالوهنِ والعدمِ والفراغِ الباهتِ .ولن يكون القادم أسوأ ممّا كان وممّا هو كائن ."

١٧

بينما كان مطرقا يعايش هواجسه تناول نقّاله وأبحر على "الفيسبوك "وجد على "الماسنجر "رسالة لأبي بلقمان نصّها :

" يا أبا الليث:إقتضت الأوضاع الأمنية تأخيرا ببضع ساعات. اِنتظر حيث أنت. سيهاتفك أبو مصعب حال تمكّنه من الخروج. وسوف تكون برفقته مع مجموعة من المتطوعين أمثالك . ثم تشدّون الرّحال إلينا."

اِطّلع وضاح على فحوى الرسالة . تملّكه شعور غريب :

- " متطّوّعون"! ,عن أيّ تطوع يتحدّث ؟ ثم إلى أيْن سنشدّ الرّحال ؟ يا الاهي يبدو أنها مغامرة مجهولة العواقب ؟

لم يردّ وضاح على الرسالة لغموضها . فكان خوف قائد التنظيم من تراجعه . هذا المتطوّع ليس سوى رقم ينضاف إلى سجلاّت أرقامهم. ومهما يكن مِنْ أمر لا بدّ من التصّرف.

كلّف أبو لقمان نائبا آخر ينوب عن أبي مصعب في الحضور. إنّه" أبو القاسم ". ماهي إلّا لحظات حتى رنّ هاتف وضاح . ردّ على المكالمة . كان صوته جهوريّا يتكلم الفصحى:

- " السلام عليكم يا أبا الليث. أعرف أنك بالمقهى الواقع قبالة السوق الأسبوعية . أنا في الطريق إليك . دقائق وتكون في ضيافتي . ستكون مرحلة من حياتك مغايرة ."

تلعثم وضاح. ولم يدْر أيردّ بالفصحى أم بالعامية ؟لكنّه اختار أنْ يردّ بالمثل :

"- وعليكم السلام ورحمة الله . نعم أنا في انتظارك يا أبا القاسم. لقد مللت المكوث بذات المكان منذ الصّباح.أرتدي بنطلونا رماديا .أجلس في الجانب الأيمن من المقهى. وعلى مقربة منيّ شيخ يرتدي برْنسا أسود وبيده علبة نشوق" .

اِنقطع الاتصال. ولم تمرّ بِضْعُ دقائق حتى حلّ بالمكان رجل كثّ اللحية ,طويل القامة , عريض الكتفين , يرتدي قميصا أفغانيا أسود . شمّر عن سرواله إلى الكعبين .ينتعل حذاء رياضيًّا .بدا المظهر غريبا لوضاح فبقي مشدوها غير أنّ الصّوت قطع حيرته:

- أهلا بوضاح المُكنّى "أبو لليث." الفتى الذي راوده حلم الالتحاق بدولة الإسلام في العراق والشام.مرحبا بك في حضرتي .

- وعليك السلام.أتعرف اسمي أيضا ؟

- في دولتنا يُعرف عنك كلُّ شيء لأنك ستكون عنصرا من عناصرها.التحري والتثبت ضروريّان أيّها الشّاب اليافع.

- هيّا اجلس يا أبا القاسم .اشرب شاي.

- أبا الليث :لا وقت لنا للشّرب. سيكون لكلّ شيء أوانه.هيّا اِتبعني.توخّ الحذر.ليس المكان بعيدا من هنا.

استغرب وضاح هذا الأمر وقام يتبعه كما لوْ أنه يقفو أثر أبيه عندما كان طفلا صغيرا. وعلى بعد أميال لمح أبو القاسم سيارة أمنيّة تجوب الشوارع. خلع لحيته وأخفاها داخل قميصه. تمْتم وضاح وتثاقلت خطاه لكنّه صاح به:

- هيّا أسرع, حُثَّ الخطى. إنّ الوضع حسّاس والحذر واجب.ينبغي أنْ لا يتمَّ رصْدُنا.

اِنتابه ذعر وهو لا يعلم إلى أين يُساق. لكّنه لا يقدر على التراجع. هرول وراءه وضجّت بذهنه أسئلة موجعة:

"أكانت لحيته خداعا وزيفا وإيهاما؟ أهكذا هم منتسبو الدولة الإسلامية؟ يبدو أنني وقعْتُ .ماذا لوْ تراجعْتُ هارباً ؟لا, لا هذا الذي أخْفى لِحيته لا أسْتبعد أنْ يكون مُسلّحا.الأفضل أن أتقدّم.كلّ نكوص قدْ يُفْقدني حياتي."

بعد أقلّ من ربع ساعة وصلا إلى بناء قديم متداع للسقوط. تحته دهليز يقطع ظلمتَه نورُ مصباح خافت. دخل وضاح ويا لهول ما رأى ! مجموعة من الأنفار تتكدّس فوق بعضها كسقْط

المتاع . روائح كريهة تنبعث من المكان فلا تهوئة به. وعلى مقربة منهم أغْراضٌ متداخلةٌ. أمّا على الجدار الأيمن فعُلّقت أنواع من الأسلحة مختلفة. وضاح لم ير السلاح طول حياته. تجمّدت أطرافه وهو يراقب المشهد الدرامي وكأنه في حلم مرعب .عمّ السكون . وقف أبو القاسم وتوجّه بالكلام إلى الحاضرين :

- السلام عليكم يا جنود دولة الإسلام ويا مرتكزَها وعمادَها . سنكون بعد نصف ساعة مع القائد الميداني . سيخبرنا بتفاصيل الخطة وبعدها سنكون بالدولة المجاورة ممّا يتيح لكم الالتحاق بدولة الإسلام في العراق والشام . لا يفصلكم عن حلمكم سوى ساعات معدودات ."

ساد صمت مطبق. وبعد فترة وجيزة سمع الحضور صوتا مدوّيا " لبيّك يا قائد". دخل مرفوقا بشخصين ملثّمين مسلّحين مثُل أمامهم وهتف قائلا:

- السلام عليكم : طبتم وطاب ممْشاكم وتبوأتم من الجنة منزلا . إخوتي في الله مرحبا بكم في دولتنا التي ستقيم الحق وتقطع دابر الكافرين , أعداء الملّة والدين .هذه الليلة ستشدّون الرحال إلى الدولة المجاورة بعد تأمين الطريق الصحراوية . ستأتي سيارة رباعية الدفع تأخذكم إلى حيث يكون أمر الله فنحن جنوده البررة. اِستعدوا إنّ موعد المغادرة قريب .

تفرّس وضاح في وجوه الحاضرين . كانت عتمة المكان تحجب سيماتهم . نظر في الحائط المقابل تبدّت له ظلالهم وقد

عكسها نور المصباح الذابل. شعور مجعّدة أُرسلت إلى الكتفين.أنوف مفلطحة ولحى طويلة شعرها أشعث. غير أنّ اللحى ما عادت تعني له شيئا بعدما اكتشف زيفها. اِستبدّ به الجوع ولم يجرؤْ على الطلب . بقايا قوارير مياه تُتَداول على الأفواه . لا غطاءَ ولا فراشَ ولا علامةَ تدلّ على الحياة.تذكّر قصّة" أهل الكهف" لما بين الصورتين من تشابه. هاهو أحد القائمين على المكان يوزّع بقايا قطع خبز يابس قائلا:

- "نحن بمنطقة عبور. سُدّوا رمقكم حتى يحين موعد المغادرة"

تناول وضاح قطعة الخبز وضعها بين أسنانه. حاول قضْمها. وجدها تضاهي الصّخر صلابة. تذكّر أنها كانت كالتي تقدّمها أمه خديجة لكلبهم بعد نقْعها في الماء لساعات حتى تلين.

- يا لقساوة المشهد ! أيَحِلُّ البشر أحيانا محلّ الكلاب ؟

تساءل وضاح كالمخاطب لنفسه.

يبدو أنه أحسّ بعسر المغامرة منذ البدء .فالأمور ببداياتها وإنْ ظنّ البعض الآخر أنّها بنهاياتها.وخواتمها. تملّكه ندم ويأس وقنوط ولا مناص له ولا مهرب.عليه إظهار منتهى الولاء وأقصى الطاعة خوفا ورهبا .

في تمام الساعة الثالثة صباحا من ليلة شتاء باردة . كانت الرياح عاصفة تحْدثُ أنينا وتناوحا حتى كأنها تحاكي نفسيّة وضاح.عواصف رمليّة تنْحجب لها الرؤية . في مثل هذا الظرف

أُمروا بالخروج تحت جنْح الظلام. يقتادهم مسلّحان أحدهما في المقدمة والآخر يسوقهم كما يُساق القطيع.كانوا في ظلام مطبق ولا قمر يضيء عتمة الصحراء .قطعان سحب تتراكض فوقهم وحبّات الرّمل تسوقها الرياح تلفح وجوههم كما نارُ السّموم وصلوا إلى كثبان رمليّة. كان الكلام همسا والنّداء إشارة . طلب القائد منهم المكوث هناك .ثم تكلّم بهمس لا يكاد يسمع :

- الآن اِجتزنا الحدود. ترقبوا مجيء السيارات .

ماهي إلّا لحظات حتى حلّت بنفس المكان سيارة رباعية الدفع , أضواؤها منطفئة مخافة انكشاف أمرها . ركبوا وراحت تطْوي الأرض طيّا . همس وضاح كالمحدّث لنفسه :

- يا لها من طريق مقفرة موحشة كأنّها طريق الموت والعدم !

وصلوا قبيْل انبلاج الفجر إلى مأوى آخر تقام عليه حراسة شديدة , سوره عال تعلوه أسلاك شائكة . نزل الوافدون فرأوْا جموعا من الناس يتدربون. إنّه معسكر تدريب يمكث فيه زوّاره شهرا كاملا. ثم تُشدّ الرّحال إلى بلاد العراق والشام .

نزل وضاح متثاقلا فقد بلغ منه التعب مبلغه.منذ ليلتين لم يلامس النّوْم ُجفونَه.صاح به أبو القاسم :

- هيّا , كنْ نشطا حيويّا. في معسكراتنا ينتفي الوهن والكسل .

بات وضاح ليلته على فراش بلاستيكي بارد تجمّد له جسده. وغطاء صوفي روائحه كريهة. تعاقبت على التدثر به عديد

الأجساد. ما كاد يُغْمض عينيه حتى سمع دويّ طلق ناري يستفيق على إثره روّاد المعسكر لمباشرة تدريباتهم. ما عاد يفهم شيئا ممّا يدور أمامه بعْدما انتزعوا منه هاتفه الجوّال. كلّ الوافدين تُنْتَزَعُ منهم هواتفهم فهو حكر على القوّاد والأمراء.أصابه ذهول لِمَا يقع ثم قال في نفسه :

"ألِمِثْلِ هذا يغامر النّاس ؟ آهٍ يا وضاح ورّطْت نفسك بنفسك. خُنْت العهد وتنكّرْت لنداء الدنيا."

أشدّ ما كان يؤرقه ضبابيّة المشهد والانعزال التّام عن النّاس والدّنيا . مَنْ يقضي هنا تُرْمى جثته كما تُرْمى الجِيفُ . لا قداسةَ للجسد الإنسانيّ. جميع المتطوّعين ماهمْ إلاّ أرقام لا قيمة لها. يُؤْمرون فيفعلون ويُطلب منهم فينفّذون .

بدأت عمليات التدريب وتمحورت كلّها حول كيفيّة استعمال السّلاح والقذائف المحمولة على الكتف وزرع الألغام والتحكّم في القنابل اليدوية.كان وضاح مع جموع المنتسبين من مختلف الجنسيات مجبرين على مبايعة الخليفة بالغياب أو بالحضور لا يهمّ.الأهمّ هو إظهار الولاء التام. في هذا المكان تسقط عنك التسمية فما عاد وضّاح وضّاحا وأمثاله كثْرٌ. هذا أبو صخر وذاك أبو يوسف والآخر أبو فارس. أسماء لا تخرج عن دائرة الأبوّة .

١٨

كانت التدريبات كلها تقوم على كيفيّة إتقان عمليات الاقتحام والقتل والذبح والتنكيل وعمليات التفجير عنْ بعْد أو عن قرْب بالأحزمة الناسفة .تأكد وضاح أن اسمه المدوّن على شهادته العلمية قد سقط منه وسقطت الشهادة بسقوطه فهي لا تعني لهم شيئا . في هاته الثغور المظلمة يستوي العلم بالجهل , والنور بالظلمة والموت بالحياة , والغياب بالحضور .

أيقن الشاب أنّه جيء به إلى هذا المكان لتعلّم فلسفة الموت وحِكَمِ القتل وفنون الإغارة .

يا لسوء الحظ ! أهذا الذي كان مطمحه أن يصبح مدرّسا ذائع الصيت ؟ فإذا به يتلقى أوامر الجهلة وينفّذها دون تردّد . كلّ تخاذل يُعدّ خيانة جزاؤها النّحر.وكل تقصير يُرْمى صاحبه بالرّصاص.إنّها ورطة وضاح الذي دفعه اليأس دفعا إلى خوض مغامرة يجهل عواقبها . فلَعَنَ الحداثة وهاتفَه النقال وكفر "بالفيسبوك" الذي قاده إلى تعلّم صُنْع الموتِ . الموتُ صناعة يا سادة في بلاد من يكفر بالحياة .

مرّ شهر ووضاح يمارس تدريباته بمنتهى النشاط. هكذا كان قراره بذكائه المعهود وفطنته الحادة. كان يعتقد أنْ لا شيء يُنجيه غير إظهار منتهى الولاء. فكان كلّما نودي هتف " لبّيك يا قائد. نحن فداؤكم ما عشنا".

اِنتهت فترة التدريب. وسيحضر القائد العسكري الميداني "أبو ضرار" ليلقي فيهم خطبة الوداع. وبعدها تشدّ الرحال إلى

وجهة التنفيذ والعمليات الميدانية, إلى جحيم الموت وفتوى الجهاد.

حلّ أبو ضرار بالمكان وكانت الجموع جاثية على ركابها.كان كهلا مُلثّما قميصه أسود ,غليظ الساقين, كثّ اللحية, اِستوى أمامهم واقفا وانتصب خطيبا وكان اليوم جمعة. لم يدرك الحاضرون أهي خطبة للجمعة أم للجهاد؟

أمسك بمضخّم الصوت وبعد البسملة والحمدلة بدأ خطبته فقال :

- " أيها المقاتلون الأشاوس. أيها الجهاديون أنتم اليوم قطعتم مرحلة هامة من مراحل الانضمام إلى دولة الخلافة التي ستشهد امتدادا كبيرا وتوسّعا أكبر .تخطّيتم المرحلة النظريّة وستمرّون - بحول الله - إلى التطبيق والممارسة الفعليّة . سيكون القتْل والسّبي والأسْر مرتكزا ومبتغًى. لنْ تتشكَّل دولتنا إلّا على أنقاض دويلاتهم . إنّهم أدعياء الديمقراطية , الفسقة الفجرة. سيكون لكم شأن كبير .سنزوّج العازب منكم بما تملك أيمانكم.وإذا قضى متزوّج منْكم نحْبَه ُتنْكح زوجته من يومها إلى من يبتغيها أو تبتغيه. همّنا الأكبر هو استمرار النّسْل والحشد لدولتنا استعدوا إخواني لهاته المهمة. ذهابنا من هذا المكان إلى العراق والشام سيكون سهلا على اعتبار أنّ هاته الدولة التي نتواجد بها تُعْتبر تحت السّيطرة ولازالت الحرب فيها طاحنة. اِستعدّوا للخروج كلّ آن وحين.السلام عليكم".

كان لهذا الخطاب بالغ الأثر على ذات وضاح فقد فهم كل الحكاية. عرف أنهم جاؤوا به بعدما فرشوا له الطريق ورودا

وأوجعوا نقاط الضعف فيه. عرف أنّه فريسة للفقر والبطالة والتهميش. فأوقعوا به ويا ليته ما فعل . لكنْ لاتَ حين ندم.

اِستند إلى جدار المعسكر في انتظار أن يُؤذن لهم بالمغادرة وراح يسترجع أطوار حياته طورا بعد طور . تذكّر صباه وما اكتنفه من أحداث بدتْ له الآن على قتامتها زاهية . تذكّر شبابه وأيام الجامعة وصالحة التي هام بحبّها وشاءت الأقدار أن تكون لغيره زوجة . اِستحضرت ذاكرته مرض أبيه ثم معاناته مع العلة التي سلبت منه الحياة .تذكر جلوسه بالمقهى مع صديقيه هاشم وفواز وابتساماتهم التي انتزعوها من صدر الزمان وهو راغم. ومزاحهم مع النادل . لم تفارق مخيلته لحظات العمل في حضيرة البناء مع العم "حسين "وابنه "أمين " وكيف كانت رائحة الشاي بالإكليل الجبليّ تكتسح حدود المكان وهويغني بصوته الشجيّ أحلى أغاني العصر الذهبي. تذكّر منها أغنية كوكب الشرق " للصبر حدود ". كان ينتشي لسماعها. تهتزّ جوارحه طربا رغم حزنه فيشاركه بعض كلماتها . تذكّر كلّما يربطه بالوطن قبيل الثورة وبعدها . كان يحسب أنَّ كل ما ذكره مأساة غير أنّه مقارنة بلحظته الرّاهنة وما عاينه من لحظات مدويّة تجعل من ماضيه ملهاة بكلّ ما حوى من أحْداث. المأساة الحقيقية والمآسي المروّعة هي التي يعيشها الآن. فالمكان يجهله وأغلب المقاتلين لا يعرفهم. وجوه غريبة وواقع أغرب .

تنهّد تنهّدة عميقة وفرك عينيه كأنّه كان في حلم . نهض على صياح أحد القادة :

- هيّا تجمّعوا موعد المغادرة قريب .خذوا أسلحتكم ولا تنسوْا مخازن الذخيرة. تفقّدوها وزوّدوها بالرّصاص إنْ كانت فارغة.ترقّبوا المنازلة كلَّ حين. ليس أمامكم إلاّ إحدى الحسنيين" النّصر أو الشهادة."

كلام زاد يقين وضاح بفداحة أمره وتمتم مخاطبا نفسه:

- " عن أيّ نصر يتحدث ؟ وعمّنْ سنتتصر ؟ يقول دولة الإسلام في العراق والشام. أفي هذين الإقليمين كفرة؟ أعادت الحروب الصليبية وأنا لا أعلم ؟ هل عاد المغول والتتار من جديد ؟ يقول" سنقيم دولة الإسلام من المحيط إلى الخليج" أخاضعون هم لحكم الشّيطان ؟

لم يستوعب ما قيل من خطب وما يقال وما سيقال ما دام في هذا المكان المظلم لكنّه مجبر على إظهار الولاء حتى يأْمَنَ مكرهم و ممّا زاد في تأزّمه نمط الحياة المقيت بالمعسكر .كلّ الأسماء مستعارة مثل اللّحى . كلّ الأفكار تشرّع للقتل وهتك الستر . بالمعسكر يُحْرمُ المنتسبون من إقامة صداقات وتبادل الأحاديث الثنائية . في هذا المكان تُنتزع منك إنسانيتك وتنغرس في عالم غيبيّ تشعر تجاهه بالضحالة والضياع . يصوّرون لك الدنيا فراغا وسرابا خلّبا وموطن خطيئة ومحبس نفس. يرغّبونك في الموت حتى لكأنّه عروس تتزيّن لبعْلها تنتظره كما ينتظر الشيطان الشرّ.كلّ ما بهذا الفضاء يؤكد موت الدنيا .

١٩

حان موعد الرّحيل إلى بلاد العراق والشام. تجمّع المقاتلون وركبوا سياراتٍ رباعيةَ الدفع وانطلقت بهم من المعسكر في اتجاه مدينة ساحلية ليمتطوا زوارق توصلهم إلى حدود بلاد الرافدين حيث توجد معاقلهم . وصلوا إلى البحر من جهة الصّحراء. كان الزمن غروبا ليتمّ الإبحار ليلا والوصول فجرا. كل التحرّكات هنا في الظلام ليس للنهار فيها نصيب .

تدافع المقاتلون وصعدوا على ظهور القوارب فانطلقت تمْخر عباب البحر. تذكّر وضاح أنّه ركب البحر في حياته مرتين. أولاهما عندما كان تلميذا بثانوية المدينة حين كان يشتغل مع العم "محمود " صائد الأسماك. حينها كان يرى البحر زاخرا جذّابا . كان وهو يلقي الشبكة في الماء يتسارع نشاطه على صوت العم محمود يشدو بأغنية "صباح فخري " صيْد العصاري يا سمك يا بنّي , الْعبْ في الميّ لعبك يعجبني". كان يذكر أنّها أغنية شجيّة جعلته يتعلّق بالبحر ويهيم به حبّا وأنسا.

أما ثانيتهما فتجسّدها لحظته الراهنة وهو يمتطي البحر مقاتلا مسلّحا. تغيّرت نظرته إلى البحر من صفاء إلى كدر. فهذا العميق أمسى رمزا لرحلة الموت . ظلمة قاتمة تلفّ المكان. يا لها من ليلة ليْلاء لم يشهدْ مثلها حتّى في موت أبيه . لقد ساق نفسه بنفسه إلى هذا المنحى. ربّما هو الشّغف بالحداثة و"الفيسبوك"أوْ لعلّها قلة التجربة وواقع الفقر .

- " لا تلمْ نفسك وضاح. ما وقع لا يُبْطله التحسّر . بلْ فكّر في ما به تتحرّر . لا تكنْ أسير ماض يستحيل عودته. بلْ كنْ متملّكا لحاضرك قبْل أن يتملّكك واتّعظ واعتبر." هكذا همس لنفسه.

تراءى له ضوء خافت على حافّة البحر . يبدو أنّ الرحلة أوشكت على نهايتها والحياة كلّها عمّا قريب ستعانق منتهاها في حمم الجحيم والموت الدّاهم .

رست القوارب على السّاحل وكانت بضع سيارات رباعية الدفع تعلوها مدافع وأسلحة رابضة تترقّب. ركب الوافدون فانطلقت تجوب الطريق الصحراوية. بعد مسيرة ساعة تفرّع الطريق فرعين فغرّبت بعضُ السيّارات في اتجاه العراق. في حين شرّق بعْضُها الآخر إلى الشام. وكان وضاح مِّمنْ شّرقوا .

وصلوا الحدود السورية .توغّلوا في الشام لبضعة أميال إلى حيث معقلهم. نزل وضاح والتحق بالمعسكر الجديد . هذا المعسكر يختلف عن الذّي كان فيه . فهو يختصّ بالتطبيق الميداني .كان يعجّ بالناس لا يُرى فيه غير اللباس الأسْوَد. وهو فضاء يختلط فيه الجنسان ذكورا وإناثاً .هناك نسوة مقاتلات في صلْب التنظيم وقع استقطابهن من جميع بقاع العالم. منهنّ المسلمات ومنهنّ من أتين من بعض الدّول الغربية بعد إذْ تمَّ الإيقاع بهن وأوهموهن بأنّ إسلامهن لا يتمّ إلّا عبْر بوّابة الجهاد.

تمّ التّرحيب بالوافدين الجدد عبر إذاعة أغان جهادية تحفّز النفس وتحمّسها وكأننا في بدايات نشر الإسلام وفتح مكة . تمّتْ مناداتهم واحدا تلو الآخر بـأسمائهم المستعارة . كلّ منْ يُنادَى يؤدي المبايعة للخليفة الذي وُكّلت إليه إمارة الشام" أبو إسحاق". كان رجلا غليظ الملامح تدلّت من يمناه مسبحة وعلى عاتقه الأيمن "كلاشينكوف".إليْه تُوكَلُ أمور النّكاح والطلاق

فهو يعلم أسماء كل النساء. وكان يعرف كل واحدة منهنّ بملامحها التّى توارت خلف النقاب . إنّهن ما ملكت يمينه .

تعجّب وضاح لما يراه في كلّ معسكر وتساءل في همس :

- "ترى أين سيكون المعسكر القادم ؟ أظنّه بالسماء .... قد يكون حكرا على حور العين ومن قضى من هاته الغربان..."

بعد المبايعة صعد أبو إسحاق إلى المنبر وراح يتكلم .

تمتم وضاح :

-" كلهم خطباء ولا جدوى . أهذا خطيب أم زير نساء ؟ وما عساه يضيف في خطبته. كلامهم ممْجوج لا جدّة فيه. آه كم مللت وجودي بينهم ! "

تكلم القائد قال :

- نحن خدَمٌ في دولة الإسلام.كلّنا شركاء فيها . لنا الخطط القتالية ولكم التنفيذ .وكمْ وددت أنْ أكون بينكم مقاتلا ! لكنْ مجريات التخطيط لا تسمح .شرف كبيرٌ أن تكون مقاتلا في كيان دولة ترنو إلى إحْقاق الحقِّ وإبْطال الباطل.

همس وضاح:

- "وهل تستطيع مفارقة الحريم ؟ يدفع غيره إلى الموت وينْغرس هو في الحياة بشهواتها.أعْمته يمينه بما تملِكها عن الخروج مقاتلا.أجْبنَ منك لمْ تر عيْني .كذا هم كلّ صنّاع الحروب

كلام ولا فعال .إحْجامٌ دون إقْدامٌ .لوْ عرفوا للإنسانية معنى وللإنسان قيمة لما تجّرؤوا على سلبه حياة وهبها الله إياه".

استرسل أبو إسحاق في حديثه:

- "بخروجكم في المهمّات القتالية تجاهدون في سبيل الله بأنفسكم وهو أحبّ أنواع الجهاد إليه. أمّا الجهاد بالمال فنحن مَنْ يتكفل به. لنا أصدقاؤنا يُغدقون علينا دون حساب وهم على اسْتعداد لإعطاء المزيد مادام ذلك في خدمة الدّين والملّة. وإنّي لأرى في نزلاء اليوم منْ لا يزال شابّا حديث العهد بالدنيا لذلك ارتأينا أنْ نهيّئهم نفسيّا لعمليّات القتل حتى يتملّكوا ذواتهم وعقولهم وهم يقتلون وينحرون. لذلك سوف يبقون شهرا كاملا مرافقين , متابعين يخرجون مع مقاتلينا حتى يكتسبوا آليات التطبيق بنفسية متّزنة تجيد الفتك وتهزأ بالموت ."

نزل هذا الخبر على وضاح بردا وسلاما .كلّ إبْطاءٍ في التنفيذ يُعدُّ متنفّسا له علّه ينجح في الهروب من أسْر هذا الجحيم.

لا يزال الشيخ يخطب:

-" من يقضي منكم لا جزاء له غير الجنة. يغادر أرْض الوجع والألم وتَعْرجُ روحه الطاهرة إلى الفضاء الرّحب متحرّرة من دنس الدنيا. أليْس الجسد محْبس الروح ومُلْجِمها ؟ أنْقى لحظات الوجود وأقْصى نَشوة الروح أنْ تكْتسح حدود سجْنها. لتهيم في عالم سرْمدِيّ يكْفر بالحدود كفرنا نحن بالحياة. لا جزاء لمن فاضت روحُه غير جنّة عرضها السماوات والأرض أُعِدّت

لأمثالكم. اصرفوا عقولكم عن الدنيا فهي دار زيف وخداع وأذيّة . بليّة تعْقبها بليّة .كلّ الصالحين الذين سبقونا بالإيمان تزهّدوا في الدّنيا واحْجموا عنها ".

ختم الخطيب كلامه بالصلاة على محمد وعلى آل محمد ثم غادر. كان وضاح يرْقب المشهد عن بعد . ما إنْ وصل إلى الباب حتى خرج عليه رهط من النسوة منقّبات اقتدْنه إلى حيث مخدعه وأُسدل السّتار .

٢٠

بدأت مهمّات الخروج الميداني إلى أقرب مدينة من المعسكر. وكان وضاحا يرافق الجماعة المقاتلة . خرج في كتيبة تضمّ عشرين مقاتلا .كانت سياراتهم تجوب شوارع المدينة من شرقها إلى غربها بغية إخضاع حيّ سكني لا يزال خارجا عن السيطرة . كانت السماء غائمة بما تصاعد إليها من دخان خلّفته الغارات بالطائرات الحربية التابعة للنظام وهي تطارد فلول دولة الإسلام. أو" بقذائف آربجي" التي تطلقها الجماعات المسلحة .

أمطرت القذائف الحيّ السكني المستهدف فتحوّل إلى ركام.توقّف إطلاق النّار وتقدّمت مجموعة المشاة ووضاح يقفو أثرهم . توغّلوا في الحيّ الذي بدا صامتا صمت المقابر بعدما خمد صوت الحياة فيه.أعْمدة من الدخان كثيفة تتصاعد .نيران تطاول ألْسنتها عمق الفضاء .إنحجبت الشّمس . توارى نورها

شاحبا خافتا. وحلّتْ محلّه ظلْمة مطبقة ,من تحتها ظلمة , من فوقها ظلمة .

تمتم وضاح :

- "آه يا وجع الكون متى تسْتكين؟ شنيعة هي الحرب حيْثما حلّت. يا أسفي على أرض العرب وهي تنزف تشكو حال العرب. ألا يقدر الناس على صُنْع الحياة بدل سلْبها ؟ ألا يهبّون إلى إخماد نار الفتن بدل تأجيجها.؟ أمَا آن لهم أن يحافظوا على ربوعهم وينتشلوا أحزانهم يزرعون بدلها أفراحا مستديمة ؟كلّ ما على أرْض العرب يؤكد موت حياة العرب .

- مرّوا من منزل إلى آخر فلم ير وضاح غير أشلاء بشرية ترامت في المكان.

اِنصدم لِما رأى. لكنّه تسلّح بجرأته فلم يُبد تبرّما وتمالك نفسه وثبت كما يثبت ذوو البأس الشديد .بينما هم يتنقلون عبر المكان وقع بصرهم على بيت لم ينهدم بالكامل وسمعوا به دبيب حركة وصياحا وبكاء وأنينا .تكلّم القائد " أبو السراج":

- ركّز جيدا أبا الليث سنقوم بعملية اقتحام بكل تفاصيلها وجزئياتها .

ردّ وضاح :

- سمعا وطاعة أيها القائد. نحن هنا للمتابعة والتركيز واكتساب ما يلزم من الخبرة.

- شكرا على ولائك المطلق. ستصبح مقاتلا عظيما. وستكون دليلنا يوما في مسيرة تحرير بلدك من الطواغيت.ما الذي حملك على الالتحاق بدولتنا المجيدة غير إباء الضيم والكفر بالظلم ؟ فلتحفظ ثأرك ولا تصالحْ .ستعود إلى وطنك فاتحا غازيا .ستحيا ردهات من الغزو الإسلامي به تكون لك كلّ العزّة ومنتهى التمكين . تابِعنا في كلّ لحظات القتل فنحن نُجيده .ولتكن عيناك إلينا مرسلة أثناء كل عملية نحْر.تعلّمْ أنْ تثْبت وأنت ترى الأعناق تُدقُّ وباب الفناء يَدُقُّ.فلا تأْخذنّك بأبْناء وطنك رأفة حين يحين موْعد ثأرك.

اِستغربها وضاح واستهْجنها ولم ُيبْدها لهم وهتف مهلّلا:

- سمعا وطاعة سيدي. لكلّ شيء أوانه نحن على العهد .

اقتحمت مجموعة المقاتلين المكان. كان وضّاح آخرهم . في ركنٍ مُنْزوٍ من أركان البيت شيخ يتألم بعدما أصابته شظيّةُ قذيفةٍ وامرأته قائمة تلْطِم وجهها في الناحية الأخرى من البيت . حذوها فتاة كاعب وهي صغريات فلذات أكبادها. وعن يمينها ولداها الشابان .

أجهز القائد على الشيخ برصاصة على مستوى الرأس قائلا:

- متى ستكفّون عن التّناسل والإنجاب يا أعداء الدين. بطونُ نسائكم تدْفع وفوهات بنادقنا تُميت وتَبْطش."

ثم مرّوا إلى الأخوين فقيّداهما وهما يستغيثان:

- يا الله : لسنا مقاتلين . نحن مواطنون. منذ أشهر والقصف يستهدفنا.نحن أبناء هذا الشعب المسكين المغلوب على أمره. لِمَ قتلتم أبي ؟؟ هل كان يهدّد وجودكم ؟ أيُقتل الأعزل في دينكم؟

تقدّم منهما مقاتل ميداني آخر وبيده سوط رقيق. بدأ بجلدهما وهو يصيح :

- هيا تكلّما أأنتما تتبعان النظام ؟ أأنتما عينه الرقيبة ؟

علا صوت صراخهما وعويل الأم ونواح الفتاة. اِشتد الجَلْد وتناثرت قطرات دم على جدار البيت والشابان يصيحان :

- وحق الله لا نتبع أحدا. نحن أبرياء . ألا ترون أنّنا عزّل؟ تفضّلوا فتّشوا البيت والهواتف النقالة. سوف لن تجدوا ما يُديننا. نتوسّل إليك باسم الإنسانية أنْ تخليَ سبيلنا . أترجاك ,....إنّ الله من ورائنا محيط ....يا الله يا الله .....

يزيد في حدّة الضرب ويكرّر ذات السؤال :

- ألا تتكلمان ؟ هيّا لا وقت لدينا للانتظار .

يثبُت الأخوان على ذات الإجابة وقد أدمى السّوط جسديهما. اِنتهت مهمة الجلاد .تقدّم مقاتل آخر بيده سكين حادة وإلى جانبه رفيق له تدلّت من عنقه آلة تصوير رقمية. وبدأ يوثّق المشهد. بقي وضاح مشدوها ساهما وتساءل همسا:" أيَّ مشهد سيوثقون ؟مِنْ حماقةَ الجاهلِ أنْ يدوّن ما يُدينه "

لا يكتفون بالنحر بلْ بالتوثيق يعقبونه .لا يتركون للحياة أثرا بل بالحماقة والبغي ينسفونه. لا رحمةَ تأخذهم ولا شفقةَ .فأيْن هم من الإسلام الذي يدّعونه؟ ألم يعلموا ما في دينهم- وهمْ يمتهنون القتل العمْد - عن جزاء كلّ حيٍّ يُعْدمونه؟

يهتزّعرْش الرحمان غضبا . تمور الأرض موْراً فيكون خطاب السماء للقاتل يُدينه:

- " أنْ اقْضِ ما أنت قاض أيّها الإنسان. فلك مع الحساب موْعد لا ترومه . لِم ردَدت أديم الكون ظلاما وعتمة. وقد أردته نورا مُشعًّا للناس بالعقل يشيِّدونه؟

لِم حرّمتم حياة الناس في أوطانهم وقدْ حلّلتها. وجعلْت لهم فيها أمْنا يَبْغونه؟ أتعِدون القاتل بالجنّة ,بالحور ,بالشّهادة. أتشاركونني في ما ليس تعْلمونه؟ الجنّة لِمَنْ نحرْتموه غدراً ففصْلتم رأسه عن جسده وسبّابتُه إلي ترْتفعُ: أنْ قد بُغِي علينا يا ربّ . غُلبْنا على أمْرنا . ليس لكم منّا يا قتلة سوى باب جهنّم تلجونه والسُخْط منّي واللّعْنة إلى يوم الدين الذي توعدونه".

تقدّم صاحب السكين. فطرح الأخوين أرضا. ثم بدأ بأكبرهما سنّا. أمسكه من ناصيته. وأجرى السكين على عنقه الليّن . قطع وريده وهتف : "الله أكبر" . كانت الدماء المسفوكة سوداء قاتمة لا أثر للحمرة فيها. كأنّها تدين القتلة وتلعنهم.

يا لَلْهول !لم يكتف بالذبح . بلْ قطّع الرأس ثم مرّ إلى الأخ الأصغر وهو يستغيث. فكرّر معه ذات الفعل بكل تفاصيله. كان

يتعّرق وسبّابته إلى الأعلى ولسانه ينطق بالشهادتين . تكلّم الناحر مستهزئا :

- وتعرفون الله يا "أبناء الكلب" ! أترضوْن بالطواغيت وتكفرون بدولتنا؟ نحن على العهد.سننْحركم عن بكرة أبيكم. لنْ نترك منْكم على الأرض دَيّارَا.

ثم التقط الرأسين في مشهد تراجيدي مؤلم تنزف له البشرية وتخّر الجبال هدّا. رماهما إلى الأم التي فقدت عقلها. فانتابتها نوبات ضحك هستيرية وقال لها :

- خذي الرأسين إلى النظام.

تساءل وضاح في نفسه عن مصير البنت وسرعان ما جاءته الإجابة إذْ اقتادها مقاتل إلى غرفة ولم يُسْمع لها غير صياح. ثم خرج ودخل الثاني فالثالث . قضوا منها الوطر واقتادوها سبيّة.

اِنتهت العملية . رفع القائد إشارة النّصر وقال :

- يا أبا الليث هذا درْس اليوم. فهلاّ استوعبْته؟

- طبعا جئنا في حضرة دولة الإسلام في العراق والشام لنستوعبَ وننفّذ. لا حلمَ لنا إلاّ بحكمها الرّشيد .

- يبدو أنّك مقاتل شرس. ولا تزال أعزبَ لذا وجب نكاحك إلى أيّة سبيّةٍ تريدها . ما رأيك بغنيمة اليوم؟ أُنظر إليها. جمالها فاتن. ألمْ تسمع المثل: " من لم يتزوّجْ شاميّة مات أعزب؟ "

- قائدي العظيم: أشكرُ لَك اهتمامك بأمري وشغفك بحالي . دعني أولا أخوض غمار تأسيس الدولة. فهي بالعناية أوْلى. أمّا النساء فلا يزال مِن َالوقت متّسع لهُنّ. وواحدة لا تفي بالغرض أريد أكثر. فليكنْ ذلك بعد الاطمئنان على تأسيس دولتنا .

علتْ قهقهة القائد وقال يمازحُه:

- يا لك من شاب َفطِنٍ! لمْ يَسْبقك بالقول مقاتلٌ آخرُ. كلّهم يتسابقون إلى ما نغْنمُ. وأعْيُنُهم مرْسَلة إلى ما نَسْبيِ . أنت مقاتل مخلص تؤثر الدولة على نفسك .

اِطمأنّ وضاح لِما سمعه رغم قتامة المشهد وهوْله. وعاد مع مجموعة المشاة إلى المعسكر وهم يقتادون البنت سبيّة. يُوكل أمُرها إلى القائم على شأن النّكاح.

٢١

هكذا كانت الغزوة الأولى. وتلك تفاصيلها في ذاكرة وضاح. مشاهد آسرة لدمويّتها , مبكية لقساوتها , صادمة لوحشيّتها. اِستلقى في غرفة صغيرة أُعدّت للوافدين الجدد .على جدارها المقابل عُلّقت شاشة صغيرة تعْرِض أغان تحريضية تنفّر من الدنيا وترغّب في الآخرة. ثم بدأ العرض الإخباري. وفي أعلى يمين الشاشة كُتب " الإعلام الحربيّ لدولة الإسلام ."

اِنبرى الصحفي يتلو أنباء الأحداث الدائرة بالمنطقة ونجاحات دولة الإسلام في دكّ حصون الأعداء. فعرضوا مشهد الرأسين وقدّموه على أنّه إنجاز كونيّ تمثل في ذبح "عملاء النظام

وعيونه الرقيبة". عبارة اِستوقفت وضاحا " الّرّبيعُ العربيّ ." كلمة استهلّ بها الصحفي حديثه عن الحرب الضروس التي تعصف بأمن المنطقة.

يعْتبِرُ هذا الإعلام الفتن الدائرة في جسد الأمة العليلة ربيعا عربيا اِنتفضت فيه الشعوب قهرا وظلما. فهي اليوم تُحاكِم طواغيتها. مْنهم مَنْ فرّ ومنْهم من حُوكم فسلِم ومنْهم من نُحِرَ نَحْرَ البعير مِنْ قُبُلٍ ونُكّلَ به ِمنْ دُبرٍ في انتهاك صارخ لحُرْمة الجسد الإنسانيّ وقداسته.

كلّ ذلك وجه من وجوه الرّبيع المزعوم. أهكذا يُعاَمل الأسيرُ في دولة الإسلام ؟ أبِمْثْل تلك الفظاعة يهتكون ستره وينتزعون إنسانيته ؟ هل هذه مبادئ الإسلام أمْ عبث الشيطان ؟

عاش وضاح مرحلة حلم عنيف .اِخترقت تلك المشاهد المؤلمة كيانَه وفعلتْ فيه فعلَها. رأى شيخا هرما يقْتَلُ وأخوين يُنْحران كما تنحر الأنعام وأمّا ثكلى عانق عقلها منتهى الجنون فراحت تقهقه. همس وضاح :

-" أقْصى الجنون أنْ ترى ابْنتها تُغْتَصبُ أمامها. ذهاب العقل أهون وقْعا عليها ممّا يقع. "

تراكضت مشاهد الغزوة في مخيلة وضاح. وتعاقبت تفاصيلها. تمنىّ الموت ألف مرة على أن يرى ما رأى. تصوّر أنّ تلك الفتاة أخته "زهراء." فيهتف " لاحوْل ولا قوّة إلا

بالله". " ثم يستمرّ تداعي المخيّلة. يتنّهد . يغيب صوته ليحضر صمته فيحدّث نفسه حديثَ الوَجَعِ همْسا:

- حدّثونا عن الربيع فأيْن أزهاره ؟ لمْ أرَ غير خريف غائم قاتم. لمْ أرَ شمس الرّبيع الزاهية ترسل أشعتها الذهبية على التلال والمروج فتقيم للجمال سُرادقا من ظلال الرّياحين. بلْ رأيتها في كبد السّماء مريضة.

لم أر أسْراب العصافير تشدو وهي تبني أعشاشها على السفوح والذرى وأسطح المنازل وأعمدة الكهرباء. بلْ رأيت غِربانا في الفضاء تنْعَقُ نذير شؤم ودمار. لمْ أرَ النساء القرويّات يتمشّين في غابات السّرْو والزيزفون وهنّ يمارسن أعمالهن مترنّماتٍ بأعذب ألحان "الدّبْكَةِ الجبليّة". بلْ رأيتهن لاجئاتٍ هائماتٍ سائحاتٍ وعويلهن ينفذ إلى أعْماق الأرض مندّدا بهمج الإنسانية .

لم أسْمعْ هتافاتِ الباعة تعلو في المحلاّت والأسواق العتيقة. ولا صوت فيروز الملائكيّ كلّ صباح. بلْ لمحت جموعا من الناس ضاعت قبلتهم ولم تبق لهم وجهة. وسمعت أصوات العويل والبكاء والنّواح تبلغ عنان السماء تشكو إلى خالقها وجع الإنسانية.

رأيت قاتلا يقْتُلُ وهو يهتف " الله أكبر. " ومقتولا يُنْحَر وإلى الأعْلى سبّابته ترتفع للشهادة.رأيت جموعا من الناس هُدّمت مساكنهم وحُرقت مزارعهم وهم يستغيثون بالله . أبصرْت أشلاءَ صغارٍ تتصاعد مع ركام القذائف والشظايا وزوجين فقدا كلَّ

صغارهما في غارة مجنونة بالبراميل المتفجرة. لم أر أمطارا تنزل من السماء. بلْ اللّعنة تحلّ والغضب والوعيد .إذْ نابت الدّماء عن الدّيَمِ ترْسم مأساة أمة .

أعْجِبْ به من ربيع يدّعونه! أَكُتِبَ على الإنسان العربيّ أن يعيش شتاء قاتما وخريفا غائما ويتمّ إيهامه بكونه ربيعا.صحيح أنّ للحرية ضريبتَها. لكنْ هل تنعّمنا بها ؟ كيف يحِلُّ الجهاد في أخيك المسلم وأنت تعلم أنّ دمَه ومالَه ونفسَه وعِرضَه عليك حرام؟

تتابعت الهواجس فأربكتْ ذاته الحيرى. لَشدّ ما كان يؤلمه موت الضّمير العربيّ . أطفال في عمر الزهور فقدوا كلّ ذويهم . نساء فقدن أزواجهن ولمْ تمرّ على فرحتهن بضْع ساعات . فتيات يُغتصبن على مرأى ذويهن.

٢٢

تيقّن وضاح أنّ وطنه جنّة الأرض مقارنة بما يعايشه في ربوع الشام . وأنّ كل وطن عربيّ آمن هو جنّة وجب حفظها وتعهّدها. لمْ تعد البطالة هاجسه الأكبر. ولا عاد فقره موضع ألم . الفقر الأكبر والعوز المعدم أن تكون دون وطن أيّها العربي.كلّ الألم في فقدان الوطن . منتهى الخزي أن ترى وطنك يتهاوى . ليس هيّنا أنْ ترى النار تلتهم ما شيّدتْه أجيال متعاقبة. أنْ ترى الجهلة يتحكمون في رقاب العباد . أن ترى قدرا يرفع اللّئيم ويحفظ الكريم .

كانَ الإعلام الحربيّ لدولة الإسلام ينقل مشاهد مُرْعبة حول الذّبح وقطع الرؤوس . وأيّة شريعة تتيح ذبح الإنسان ؟ لم يأْتنا التاريخ في تعاقبه وفي حقبه السحيقة بمشاهد صادمة كهذه. تهاوت ذات وضاح. وهام بماضيه بعدما ضاق ذرعا بحاضره المقيت وبدأ يفكّر جديا في سبيل تخرجه من دائرة الموت الزؤام والجحيم الذي زُج به فيه وأنفه راغم . إنْ بقي على حالته سيصبح عمّا قريب قائدا ميدانيا ينفّذ ما يطلب منه .سيدمن القتل والنّحر . سيصير وحشا آدميا. بلْ سيرغم على التزوّج بإحدى السبايا يتداول جنود الدولة عليها إذا خرج يغزو. أو تُنكح لغيره إذا ما قضى نحبه .

وضاح, الشّاب الذي نشأ على تعلّم القيم الأصيلة تكره نفسه أنْ تتهاوى إلى ما دون الإنسانية . ربّما الموت أحبّ إليه من الاِندماج في تعاليم الدولة وأن ينْغرس بأفعاله فيها .

تمرّ الحياة في المعسكر متباطئة. وراح الشاب مطرقا يفكّر في ما به ينجو . لم تبق أمامه سوى بضع أيام قلائل . هام فكره في حالة عائلته فقد غادرهم منذ أمد بعيد .كان قد أعلم أمّه أنه وجد شغلا في مدينة جنوبية وأنه قد يتغيب لأشهر قليلة ثم يعود إليهم. كان ذلك عندما تمّت مغازلته من دولة الإسلام في العراق والشام بالشغل والعدل. وهو اليوم ينْشد النجاة بنفسه .علّمتْه قسوة الحياة المتفجّرة بالشام أن يكون أقصى طموحه النجاة من جحيم الموت الداهم .

تذكّر كلام " أبو السراج " حين قال له " ستكون قائدا فذّا في الطريق إلى تحرير بلدك من الطواغيت. "لمْ يقدر على نسيان هذا الطلب الغريب وقال متمتما :

- " أتجرؤُ يا وضاح وأنت الشّاب المتعلم أنْ تخون الوطن ؟ فتأتيه غازيا بالظلام متستّرا. أنْ تشارك في إشعال نار الفتنة فتزهق أرواحا ما كان لها مِنْ دور سوى أنّها تشقى لتحيا حياة كريمة - إنْ وجدتْ إليْها سبيلاَ- تسعى بسواعدها في تربة الوطن المقدسة .والله لن أفعلها وإن تواطأ غيري وخان . ألم يقل بعض الحكماء " بلادي وإنْ جارت عليّ عزيزة "؟

قمّة الرجولة ومنْتَهى المروءة أن يكون الحبّ للوطن حتّى وإنْ جار عليك .أنْ تعيش بوطن آمنٍ وأنت ترنو إلى غد أفضل. خيرٌ من أنْ تعيش بوطن تتهاوى صروحه وتُنتهك حرمته وليْس أمامك من غدٍ.

تذكّر أمه خديجة. بدتْ له حكيمة بما علّمته إياها مدرسة الحياة. ذات مساء ووضاح يتحمّس للفوضى وهو يتابع الأحداث بشغف, قالت له :" حاكمٌ ظلومٌ خيرٌ منْ فتنة تدوم ".أدرك وهو في محنته أنّ كلامَها حكمة بليغة لا تدركها إلا النفوس العظيمة التّي تعلو على جراحاتها.

أذيع خبر عاجل بالمعسكر وسط هتافات وتكبير وتهليل :" لقد تمكّنت - بفضل الله وحده- كتيبة عقبة بن نافع ب"افريقية "والمنضوية تحت تنظيم دولتنا من تحقيق إنْجازٍ عظيمٍ سيفتح الطريق أمام إنجازات أكبر"

تسمّر وضاح مكانه ينتظر الكارثة فالحديث يخصّ بلده الجريح.

اِسترسل المذيع :" تمكّن مقاتلونا الأشاوس الأبطال في جبال بوسط افريقية من ذبْح راع وأرسلوا رأسه إلى أمّه - ترويعا للناس وترهيبا - لأنه يرْعى أغنامه قرب معاقلنا بكهوف الجبال .خشينا أن يكون مخبرا لدى الطواغيت.لابدّ أنْ تبْقى جحورنا آمنة لا ترمقها أعينهم ولا يتسرّب إليها نورهم .دأبْنا على حياة الظلام والنار.

انتابه خوف وهلع من ضياع الذاكرة بتهاوي الوطن ودخوله غياهب المجهول وأسوار العبث الجنوني. فتمتم مُتَألّماَ :

- لَمْ يعد الراعي آمنا في بلدي. آه يا وجعي الذي اِستبد بي ودكّ مفاصلي دكّا متى ستنجلي؟ قمّة الجبن والدناءة أن يُذبح راع يرعى أنعامه. نعم أنا كنت راعيا. وأبي كان راعيا. ورسولنا الأكرم كان راعيا. أكُنّا نستحق القتلَ والنّحْرَ ؟

٢٣

كانت بالمعسكر فتاة انجليزية تدعى "كريستينا"جنّدها التنظيم بعدما استغلّ رغبتها في الدخول إلى الإسلام عبر شبكة التواصل الاجتماعي. كانت تنحدر من عائلة بورجوازية تعيش حياة البذخ والترف. فلا هاجس يشغلها وانطفأ موقد الحياة فيها بعدما تخرّجت من جامعة مختصة في تاريخ الأديان. اِنجذبت إلى الدّين الإسلاميّ لِما يزْخَر به من مثل وقيم . تفاعل معها

القائمون على موقع تنظيم دولة الإسلام في العراق والشام . اِستغلوا عفويتها وغّرروا بها لتلتحق بالتنظيم عبر الحدود التركية .

كان وضّاح ينظر إلى عينيها كلما مرّت بجانبه . عيناها تعكسان براءة الأطفال. كانت ذات مرة تحاور قائدا وتؤكد له أنها ما جاءت من أجل القتال. بلْ جاءت لتعتنق الإسلام . فهم وضاح الحديث باللسان الانجليزي وهو المغرم باللغات منذ أيام دراسته.

تواصل الحوار بينهما ووضاح يسْترق السمع.قال لها أبو البراء:

- كريستينا : إنّ أفضل طريق للدّخول إلى الإسلام هو الجهاد . لقد حثنا الله عليه وهو السبيل التي تقود إلى الجنة .

ردت مستغربة :

- أريد تعلّم قيم الإسلام ووسطيته . أنا أكفر بالحرب لذلك هربت إلى دين الإسلام, دين التسامح والسلام . كفانا حروبا لقد تمزّقت أوصال العالم. وتشرّد سكآنه عبر التاريخ بالفتن والحروب الطاحنة .

- ليست حروبكم كحروبنا. لقد فُرِضتْ علينا الحرب فرضا حتى نقيم دولة الإسلام في العراق والشام ومنها إلى كل العالم.

أحسّ وضاح أن الفتاة الانجليزية وقعت ضحية في شباك دولة الإسلام وما بقاؤها إلا إرْغاما وإكراها . هم بارعون في تظليلها سيقنعونها بأفكارهم لا محالة , بالجنة وبزيف الحياة وبطلانها.

اِستغرب وضاح لأمر الفتاة بخروجها من النعيم إلى الجحيم. لوْ توفّرله ما زخرت به حياتُها مِنْ غنى وترف لَمَا أقدم على المجيء إلى هذا المستنقع الآسن . أغْرتْه وعود كاذبة . حدّثه قادتها عن الشغل والعدل وكلِّ ما تطيب به الدنيا وقال متأففا :

- ما دهاكِ أيّتها الشقراء ؟ أيكون الكفر عندكم بالغنى كما يكون عندنا بالفقر ؟ لو كنتُ مكانكِ لأقبلت عن الدنيا في تأنقها لي . لكنت تزوّجت حبيبتي التي كان قد صرفها عني الفقر.لكن لا أدري ؟ أنا لمْ أجّرب حياة الغنى. ربما يكون فيه ما ينفِّر كما الفقر يُعْدم .كنت أذكر أنني طالعت رواية ذهنية حين كنت طالبا بالجامعة بطلها مثل كريستينا . توفرت له كلّ مقتضيات الحياة فراح ينشد ما وراءها. يعيش خواء روحيا دفعه إلى كره الغنى كما نكره نحن الفقر .يا الاهي لا أحدَ منّا على اختلاف أحوالنا يعيش اطمئنانا وسكينة ربّما هي نواميس الحياة وحكم الخالق فيها .

أزِف موعد تنفيذ وضاح لمهام جهاديّة ولم تبق إلا سويعات قلائل. عقدوا به اجتماعا ليختار بمقتضاه مهمّة ينفذها أو غزوة يقودها وفق مجريات الأحداث على أرض الواقع.

كانت رغبة التنظيم جامحة في ضرب مفاصل النظام الحاكم. وثمة مساع حثيثة تدار سياسيا لتطويق الأزمة من الناحية

الأخرى. سيغادر وفد حكوميّ رفيع المستوى إلى إحدى الدول للمشاركة في تنظيم لقاءات بين أطراف النزاع لتطويق الأزمة وإخماد فتيل الحرب على اعتبار أن دول الجوار تشكو أزمة إنسانية جرّاء توافد آلاف اللاجئين على أراضيها .فكان التخطيط لاستهداف المطار. هتف وضاح :

- أريد أن أكون صاحب المهمّة. رجاءً لا تحرموني. وجب أن أدُكّ حصونهم دكّا. أنْ أجعلهم أثرا بعد عين. دولتنا أولى بالوجود من دويلاتهم.

ما إنْ أكمل حديثه الانفعاليّ حتى دعاه أبو إسحاق وهو أقدمهم في التنظيم وقال:

- يا أبا الليث :إنّي أعجب لحماستك وأنت حديث العهد بنا. تلك شيم المقاتل الشّرس . اِختَرْ المجموعة التي سترافقك في مهمتك.

- أيّها القائد المفدّى : نحن نعلم أن المطار تتوافد عليه كبار الشخصيات السياسية من داخل البلد وخارجه. وتتزامن مهمّتنا مع خروج الوفد الحكومي الرفيع عبره .أتوقع أن يكون مراقبا من كل الجهات, محاصرا بشتى أنواع الأسلحة. فهو المكان الحيوي الذي يتنفس منه النظام. لذا لا أرى فائدة في الكثرة.هاته المهمة فردية أو ثنائية .

تعجّب أبو إسحاق من إلْمام وضاح بكل التفاصيل وقال مستفسرا:

- أخبرني عن تفاصيل خطتك يا أبا الليث . لقد أثرت تشويقي .

- أنا اقترح تنظيم عملية استشهادية بالمطار حتّى أنسفه نسفا. فتسْهل سيطرتنا عليه. ونقطع عنهم الإمدادات . لا يقلقني أن تكون فرديّة. هم يتوقعون أنّ أغلب غزواتنا جماعية لذلك لن يجلب انتباههم شخص أو شخصان .

اِنبهر القائد بطرافة الفكرة وأغْراه تنفيذها. فأثنى عليه الثناء كله. اِسترسل وضاح في الكلام.

- وحتى يكون التنفيذ آمنا أقترح أن ترافقني الفتاة الانجليزية . أظنّ أنكم نجحتم في إقناعها بالأوْبَةِ إلى الله عبر بوابة الشهادة. سوْف لنْ تمانع. يجب أخْذ الحيطة والحذر. لابدّ أن تكشف الفتاة عن وجهها وشعرها. أنا سأحلق ذقني وشعري ونُوهِم القائمين على أمْن المطار أننا صحفيان أجْنبيّةٌ وعربيّ جئنا ندوّن فظاعات تنظيم دولة الإسلام. حتْما سيفرشون لنا الطّريق ورودا.حينئذ سيكون اختيار الوقت المناسب للتنفيذ . سأختار غنيمتي ولو كانت رأس النظام . سأتفنّن في الاختيار. إنني أبو الليث وهل رأيتم للّيث نكوصا ؟

- عجّلْ يا قائدي بإحْضار معِدّاتِ التصوير حتىّ نخدعهم وأشدِّ الأحزمة الناسفة فتكا حتى ندمّرهم .

صاح القائد :

- تكبير, تكبير.

علا تكْبير المقاتلين يعمّ أرْجاء المكان.

ثم أردف القائد :

- طوبى لكم يا أبا الليث وبُورك لدولة الإسلام بك شهيدا خالدا .

أتقن وضاح دوره التمويهي كأحسن ما يكون. وبقي ينتظر إتمام الاستعدادات للتنفيذ. يمرّ الوقت سريعا على غير نسقه المعتاد.طلب وضاح من القائد تدوين وصيّته- إمْعاناً في الإيهام - وإعلان مطلق الولاء لدولة الإسلام. يجب أن يكون التصرّف حكيما حتى لا تُثار حوله أدنى شكوك .

٢٤

تكفّل جماعة التنظيم بإحضار مستلزمات التصوير الصحفيّ وتجهيز الأحزمة الناسفة. وطلب من الفتاة الانجليزية كشف مفاتنها دفعا للشّبهات. نزع وضاح قميصه الأفغاني الأسود. وارتدى بنطلون "جينز"وسترة الصحفي ومثلها لكريستينا . كان ذلك طبعا بعد تركيب الأحزمة الناسفة شديدة الانفجار وقد أصّر وضاح أن يكون جهاز التحكم بحوزته مُدّعيا أنه لا يثق بالنساء وأعين القادة ترمقه بذهول .

مثُل الشابان أمام "أبو إسحاق "وهما يستعدّان للمغادرة. كان وضاح يعلم أنّها لحظة الخلاص في حين كانت تراها كريستينا رحلة الموت والغياب الأبديّ . تكلم القائد فقال :

- هذان الجنديان أنعم الله بهما على دولة الإسلام بالعراق والشام. هما في طريقهما إلى مهمة عظيمة نسأل الله لهما السّداد. ستُذاع العملية حال تنفيذها تخليدا لذكراهما. وقد ارتأى أبو الليث أن يلقي فيكم كلمته فليتفضّل.

قبل البدْء بالكلام هلّل وضاح بالتكبير. وتعالت الأصوات من كلّ أرجاء المعسكر مكبّرة ثم طفق يقول:

- نحن في حضرة دولة الإسلام تهون علينا نفوسنا . نحن أكثر النّاس حرصا على الشهادة إرساء لمقومات الحكم الرشيد. فلا نكترث ولا نبالي. كمْ من شهداء قضَوْا نحبهم وما ضعفوا ولا استكانوا ! أودّعكم على أمل اللقاء بكم في جنة عرضها السماوات والأرض أُعدّتْ للمتقين أمثالكم. وأنا أغادر إلى عالمٍ أرْحبَ ألتمس منكم العفو لأنني اسْتأثرت بهاته المهمة لنفسي. أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه . علا تكبير الحاضرين وغادر وضاح وكريستينا .

وهو يخرج من المعسكر متسلّلا تيقّن أنه يغادر أوكار الموت إلى عنفوان الحياة. أحّس أن الكون ما عاد يسَعه.ما عاد يعنيه شغل ولا معاناة ولا ألم بعد تحرّره. لكن لا تزال المسيرة معقدة كانت كريستينا تمشي متباطئة . صاح بها :

- هيّا أسرعي . حُثّي الخطى .

كانت غايته أن يتوارى عن الأنظار ويبتعد أكثر ما يمكن عن مناطق نفوذهم . تسلّلا عبر المنحدرات والهضاب. وأصبحا في

مأمن. التفت وضاح إلى حزامه النّاسفِ تناهى إلى مسمعه صوت أنين أعضائه كأنّها تناديه ولسان حالها يقول:

- يا وضاح: أتهون عليك الحياة ؟ ألسْتَ مسؤولا عنّا بقول رب العباد "إنَّ اللهَ اِشْتَرَى مِنَ المُؤْمنينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوَالَهُمْ."سنشهد عليك يوم ينطقنا الله فنكون لك ضِدًّا . ثمَّ كان نداء الرّوح :

- وضاح أأنْتَ زرعْتَ الرّوح في الجسد ونفخت فيه أم الله؟ فإنْ أنت نزعتها بتفجير جسدك فإنّكَ أعْدمْت عمرا كتبه الله وشاركته ما ليس لك به علم .

أدْمى نداء جوارحه قلبه فكاد ينْفطر. وفاضت عيناه دمعا. ثم التفت إلى كريستينا وطلب منها التقدم. كانت تتعرّق مرتجفة لا تعلم مصيرها . اِبتسم ونزع عنها الحزام الناسف ثم حزامَه. نظرت إليه كمَنْ وهبها حياة كانت ستُنْتزع منها ثم قال:

- لقد سمعتُ تحاورك مع قائد دولة الإسلام وفهمت كلّ مجرياته. أنت جئت راغبة في اعْتناق الإسلام دينا حنيفا غير أنّهم حوّلوا وجهتك كما فعلوا بي. أعلم أنّهم ملائكة أثناء الاستقطاب وشياطين بعد الوقوع في شراكهم .

لمْ تقو الفتاة على الوقوف فجلست وقالت:

- حقا لقد مكروا بي وأوقعوني في شراكهم الواهنة .

- ما مكروا بك بعْد . لو بقيت معم لتداولوا عليك تباعا . لنكّلوا بجسدك . لأمسيتِ مرتعا لغرائزهم المكبوتة .أنا الذي اقترحتك

رفيقة في رحلة التفجير الموهومة حتى أخلّصك منهم . تألّمت كثيرا وأنا أسترق السمع في ما دار من حوار بينك وبين ذلك "التيْس" وهو يترقب لحظة الانقضاض على هذا الجمال الصّارخ. كمْ هم جهلة ينتفي عندهم الذوق يريدون أن يرسلوا كل هذا الجمال إلى الجنّة عبر الانتحار. يريدون أن ينتزعوا وردة مثلك من أرض الحياة لتتطاير أشلاء يلعنها الله والملائكة والناس أجمعون.ما أروْك وجها للإسلام يليق برفعته وكونيّته.

الإسلام هو دين الوسطية والاعتدال, دين الرحمة والتسامح دين الإنسانية جمعاء . فهو رحمة للعالمين . لقد غرّروا بي مثلك. فأوهموني بالشغل والحياة الكريمة والعدل بعدما طالت بطالتي في وطني. اِستغلوا طيبتي وصدقي غيْر أنّ الله مكر لنا. وأخرجنا منهم سالمين .

أعجبت الفتاة بوضاح كّل الإعجاب. فهو في نظرها وجه الإسلام المشرق الذي تخصّصت في الاطّلاع عليه أثناء اشتغالها باحثة في تاريخ الأديان .

تخلّص وضاح من معدات التصوير. وخلع سترة الصحفيّ. وتحسس طريقا آمنا حتى لا يقع ثانية في أيدي النظام فيُتّهَمَ بالجوسسة. طال المسير بهما وهما يحثّان الخطى حتى أشرفا على الحدود اللبنانية.كانت ليلة شديدة البرودة تتجمّد لها الأطراف لكن برودةَ الطقس تبعدها حرارةُ النجاة. فما وهنا وما ضعفا .

٢٥

مع طلوع الفجر- وهما يجتازان الحدود- لفت انتباههما أجساد بشرية متجّمدة أفقدتْها برودةُ الطقس حرارةَ الحياة ولهيبَها . أمعن فيهم النظر فإذا هي عائلة برمّتها. زوج فارق الحياة وهو يعانق ابنه الذي قضى معه. وزوجة هامدة لا حراك فيها تحتضن رضيعتها والثدي لا يزال بين شفتيها المتيبّستين . جثا وضاح على ركبتيه يتحسّسهم لعلّه يجد بهم نبض حياة لكن فات الأوان. عائلة كانت تتحسّس طريق الأمان , راغبة عن الموت فإذا هي تقع فريسة للفناء والغياب .

توجّه إلى كريستينا وهتف :

- أرأيت هول الحرب وجحيمها ؟ وكيف يدفع الأبرياء ثمنها المدمّر. حدّثونا في معسكراتهم عن الجهاد . أفي هاته الأجساد المنهكة نجاهد ؟ أيَّ ذنب اقترفته هذه العائلة حتى تغادر وطنها إلى حيث لا وطن. تهْجر استقرارها إلى مخيّمات الغربة والشّتات. إنها ثقافة القتل والفوضى صاغها الجهل البشري في شتاء الإنسانية واختاروا له "الربيع " اسما ولم نر غير كآبة الخريف وغيم الخريف وعراء الخريف .هل سمعنا بالربيع الفرنسي أيّام ثورة التنوير ؟

ردّت كريستينا متأففة :

- إنّ ما يقع فوق أرضكمْ المباركة انتهاك صارخ للإنسانية جمعاء وتدنيس للوجود البشري على وجْهها. لمْ أَرَ في معسكرهم غير إرهاب وتقتيل .

- منتهى الإرهاب أن تتنزع الحياة من إنسان بريء . آه يا كريستينا أنت ما رأيت شيئا. هناك رؤوس تُقطع ونسوة يغتصبن على مرأى أزواجهن . مشاهد لا تفك ذاكرتي ولا تبرح عقالها .

لم تشهد البشرية على امتداد تاريخها مشاهد أكثر دموية ممّا رأى وضاح وهو يرافق عصابات القتل. تذكّر توسّلات الشّيخ الجريح وقد أجهزوا عليه وقهقهات الأم بعدما أصابها من الجنون مسّ وهي ترى ابنيْها يُنحران وابنتها تغتصب. أليس في هؤلاء رحمة الجنس البشري؟

ذكّره مشهد النحر بقصة إبراهيم عندما " تلّ ابنه للجبين" وهمّ بنحْرِهِ ففدتْه السماء بذبح عظيم. زاد يقينه بأن السماء لا تشرّع للقتل بلْ تنفطر له وتحزن والأرض تمور لهوله .

جثث القتلى التي عاينها في أرض الموت والدّمار عادت بذاكرته إلى ما قبل الخلق حين قال الله للملائكة " إنِّي جاعِلٌ في الأْرض خليفة " . فكان ردّها " أتجْعلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ ونحْنُ نُسَبّحُ بِحَمْدِكَ ونقدِّسُ لَكَ. "

أيكون الاستخلاف بالقتل والتدمير والموت المستشيط؟

أبهذا السلوك الوحشي الهمجيّ يكون الإنسان خليفة ؟

اِستقرّ المقام بوضاح ورفيقته بمخيم للاجئين الهاربين من أرض العذاب. محظوظة هي العائلة التي تنجو بأكملها. لشدّ ما أدمى قلبه اِمرأة ثكلى تحمل مجموعة دمًى بيمناها وقد أثقل الحزن محيّاها. حينا تشدو وحينا آخر تهذي بما لا يُفهم. علِم

أنّها فقدت زوجها وكلَّ أبنائها. وذاك طفل لم يبلغ السابعة من عمره يحتضن أخته ذات العامين وبيد مرتجفة يزقّها بعضا من فتات الخبز . وتلك عروس تحتفل بليلة زفافها وسمعها منشدّ إلى أعْذبِ الألحان يُقصف موكبها قصفا مركّزا فقضى أغلب مَن في الحفل بما في ذلك عريسها .

ما أبشعك يا حرب! وما أبغض الإنسانية وهي تمارس فعل القتل! أمَا آن للبشر أن يستفيقوا؟

ما يحدث فوق أرض العرب يدين العرب وينزع منهم تسمية العرب . فضاءات تعمّها المآسي. مبانينا تحوّلت إلى ركام .فلا الشّام عاد شامّا ولا العراق أضحى عراقا . خضرة ربوعنا يلفّها سواد قاتم.

اِفترش الرمال والى جانبه كريستينا . لمحت في عينيه كل هموم الدنيا فبادرته قائلة :

- وضاح : حدثني عن نفسك وعائلتك. دعْنا نتعالى قليلا عن أحزان البشرية.

- آه يا كريستينا : حياتي قصّة لا تُحْكى . صغر يكتنفه تعب وشقاء . فقر وطبيعة تقسو .تخرّجت من الجامعة. فاحتضنتني البطالة المقيتة . أبٌ تستبد به العلّة فتأخذه والجهد يقصر. ثم حلّ ربيع العرب. ولم يكن غير خريف أسود ساءتْ حالتي معه ووهنت . ثم أكمل "أبو لقمان " ما تبقّى وزجّ بي في معسكرات الموت. وهناك تفاصيل عذاب لا تُحكى. فلا تحرّكي أوجاعا

نسفها الزمان. ودعيني أنشغل بحال البشريّة الجاثمة في هذا المخيم. تتلاشى مأساتنا إزاء مآسي الآخرين .

ردّت بتحسّر كبير وعيناها تذرفان دمعا مغزارا:

- هكذا تكون الحياة . لا يمكن أن يتصور الإنسان حياة دون مآس.كلّ الشرف في التحدّي والتّجاوز نِعْمَ الشّاب أنت. رغْم ما ألمّ بك لا زلتَ ثابتا كما الطّود لا يتزحزح وأنت في أتون معسكر دولة الإسلام تنحُتُ سبيل النجاة بمنتهى المكر ولم تستأثر بالحياة لنفسك. وهبْتني حياة كان سينتزعها منّي أولئك الأوغاد.وضاح أنت تجسّد أصدق لحظات البشريّة في صفائها وعذريتها الأولى. نَعَمْ هذا ما عرفته عن الإسلام. أنت وجه الإسلام المضيء الذي أعمتْني كتائب الظّلام عن إدراكه.

تبسّمت واسترسلت في حديثها:

- لكن - رغم ذلك- الفضْل في لقائنا يعود إلى "أبي لقمان" وحده. لولاه ما تعارفنا ؟

- الإسلام المعتدل يعمّ أوطانكم. فذلك الطبيب الذي يشتغل في أكبر دور الصحة الأوروبية عربيّ . وذاك الأستاذ الذي يحاضر في أعتى جامعاتكم عربيّ . والعامل البسيط الذي يشتغل في حقولكم عربيّ .

كلُّ أولئك هم وجه الإسلام المعتدل الذي حجبه ظلام المتعصّبين ونظرتهم الضيقة للحياة.

٢٦

إنّي أعجب لجهلة يدفعونك إلى الموت دفعا .ويوهمونك أنك في الطريق إلى الله عبر الشهادة باسم الجهاد. لو جاهدوا في أنفسهم فخلّصوها من جهلهم وظلاميتهم وحقدهم لكان أجدى. تمكّنتُ من الإيقاع بهم . أدرك جيدا أنّ عقولهم تقصُر عن الذكاء. وهلْ يمكن لقاتل يقتل أن يكون ذكيّا ؟ الذّكاء نتاج صفاء العقول واكتمالها .القتْل منتهى العجْز وأقْصى القصور. أنْ تنْتزع حياة إنْسان فجهْدك واهِنُ وعقْلك مُعْدمُ . أرْقى العقول تهب الحياة للنّاس وترْكب من العلْم ما فرّطنا فيه وتَمُنَّ به عليْنا وقدْ نتوسّله أحْيانا.

أهنتهم في عقر دارهم رميت قميصهم الأسود سواد أيامهم ولياليهم في معسكرهم . تبّا لهم ما رأيت فيهم غير وحوش وذئاب.

مسحتْ على شعره بلطف وقالت :

- وضاح , سيتغيّر مجرى حياتك الآن. سترافقني إلى انجلترا . ستواصل تعليمك إن شئت . ستشتغل . ستكشف لك الدنيا عن وجهها الحالم الذي هجرك .

- كريستينا : يهيم تفكيري بعائلتي. لا أعلم عنهم شيئا منذ سنين مرّت . لابد أن أعود إلى وطني أوّلا . إني اشتقت إلى رائحة ترابه , إلى كل تضاريسه , إلى أوجاع الناس وأفراحهم فيه .

زاد إعجابها بالشاب العربيّ. فهو لم ينقضّ على الفرصة انقضاض النّسور . أيقنت أنه أنقذ حياتها ليس طمعا إنما هو نداء الإنسانية يصرخ في ذاته .

اِلتفتت إليه وقد لان حديثها وعذُب :

- دعنا نغادر إلى انجلترا أولا حتى نؤمّن بقاءك هناك فنتمّ إجراءات الإقامة. ثم نعود سويا إلى وطنك . أريد أن أرى الأم التي أنجبتك والتربة التي فيها انغرست .

واصلا المسير وذاكرتهما ظلت عالقة بالمخيم. فضاء تشكو فيه الإنسانية وجعها وأنينها. مشاهد صادمة عنْ همجية البشر وتدنيسهم لصفاء الكون الأبديّ.

ضجّت بذهن وضاح أسئلة موجعة فهمس مخاطبا نفسه تأملا :

- " ما للعروبة تبدو مثل أرملة "؟ أكُتب علينا القتل منذ تاريخ سحيق ؟ ألم يقم تاريخنا السّياسي منذ سقيفة بني ساعدة على الاختلاف والتفرقة ؟ كم من خليفة من الخلفاء الراشدين قضى قتلا ؟

ألا توجد سبيل أخرى للحكم غير القتل ؟

ألهذا الحدّ يستهوي الحُكْم الناس فيقْتَتِلون وهم لا يعلمون أنّ في تطاحنهم سلْب لإنسانيّتهم وانْغماس في حيوانيتهم؟ فكيف سيحْكم قاتِلٌ ويُؤْتَمَنُ على حياة النّاس؟

وهَلْ سيهْدأُ له بال ويَسْتقرّ له حال ودماء القَتْلى تلاحقه باللّعنة والخزي ؟

وصلا إلى بيروت الفاتنة وقد تزيّنت لهما كالعروس. تنشّقا رائحة أزهارها . تمشّيا في شوارعها آمنين ...يا لروعة الحياة في قطعها مع العنف والتدمير !

٢٧

كانت بحوزة كريستينا بطاقتها البنكية الدولية . توقفت عند أوّل موزع آلي . سحبت من النقود ما يكفيهما. وحجزت إقامة بأسبوع في نزل ببيروت حتى يصرفا المخيّلة عن هول ما لمحت العيون وعن رائحة الموت وانعدام الحياة .

اِنجذبت الفتاة الشقراء إلى وضاح .آسرتها قيم الرجولة فيه. حدّثته عن الزواج فوعدها حالما يستقرّ وضعهما ويعودان إلى انجلترا ومنها إلى قريته الرابضة في ربوع وطنه الشامخ .

تعجبت لنقاء سريرته ورصانته ورأت فيه ما لم تر في غيره. في الأثناء أتمّت إجراءات السفر إلى عاصمة الضباب. إنّها الليلة الأخيرة في بيروت الأبيّة . فرحة السفر وركوب الطائرة أذهبت عن وضاح الحزن وهما بباحة النزل وحدائقه الفاتنة. فاستحضر مأثورا من القول وراح يردّده :

- " ثلاثٌ يذهبن عن المرء الحَزَنْ: الماءُ والخضرةُ والوجهُ الحسنْ. "

رمقته بنظرة سحريّة من عينين تجسّد فيهما كل صفاء الدنيا وقالت في صوت أغنٍّ:

- أين تراهم أيها الشاعر ؟

- كريستينا : انظري إلى ذاك الشّلال ألا ترين ماءه ينساب ؟ ذاك الماء فيه كل الحياة .يُذهب حزن الإنسان إذا ما أنصت إلى عذْب خريره .

- ثم انظري إلى ذلك الجبل المقابل لشرفة النزل. ألا تشعرك خضرته بمنتهى الجمال. فتزكو له النّفس ويَرِقُّ شعورها ؟

- ثم اسحبي المرآة من حقيبتك .

اِستغربت طلبه فنظرت إليه مبتسمةً . أعاد طلبه:

- إفعلي ما تؤمرين.

أخذت المرآة بيدها. فلاطفها همسا :

- انظري فيها بتمعّن . ألا ترين فيها منتهى الجمال الذي أطْفأ كمدي وأذهب عنّي الحزن .؟

علت قهقهتها وقالت في إعجاب:

- خفة روحك يا وضاح ودعابتك اللطيفة جعلاني أرى الدنيا كما لم أرها من قبل.قربك أنساني لحظات الخوف التي انتابتني بالمعسْكر وهم يرسلونني إلى حتفي .

- كريستينا :لا تكدري صفو مزاجي بالحديث عنهم . مرحلة وانطوت لا نقف عند حدودها. حيّز من العمر مهدور وجب تجاوُزه. دعينا نقْبل على الحياة بنهم العاشقين. و ننغرس فيها بكلّ ثقلنا . العاقل من لا يعقله الزمان . العاقل من يحلّق فوق الأحزان .لابد من طيّ الماضي .أنْ نقف على أعتابه عجْز وبهتان.حياتنا مزيج بين هذا وذاك. بين سعادة وشقاء, بين حضور وغياب. والإنسان الفاعل هو مَنْ ينتزِعُ من أعماق حزنه مراسمَ فرحه ومِنْ سواد لياليه صفاءَ نهاره.

- حاضر, هيّا انهض موعد السفر قريب. غدا فجرا نغادر إلى لندن . تفقّد أغراضك. وأرتد من الملابس أفخرها.

كان وضاح ينتظر موعد إقلاع الطائرة بشوق عارم. هي المرة الأولى التي سيحلّق فيها عاليا.وحضرتْه صورتان: صورة للطائرات الحربيّة وهي تقصف وتقتل وتبيد. وصورة للطائرة وهي ترتفع بالإنسان وتقهر حدود المكان.هما نظرتان للعلم مختلفتان.نظرة تُعْدم الإنسانَ بما صنع الإنسانُ. ونظرة تدْعَم الإنسانَ بما أبدع عقْلُ الإنسانِ.

سيتجاوز وضاح علوّ الجبل الذي كان يعتليه في قريته. سيكون شعوره جارفا وهو في طريقه إلى عاصمة الضباب عبر الفضاء .أقلعت الطائرة. فكانت لحظات فارقة في عمره. كان ينظر إلى كريستينا ولسان حاله يقول :

- طوبى لي بك يا زهرة انتزعْتها من أرض الموت والفناء والعذاب المستديم. يا حلما اجتثّني من سراديب اليأس .

٢٨

تجاوزت الطائرة علوّ السحاب وحلّقتْ فوقه . كان منظرا بديعا آسرا . بعد أقلّ من ساعتين حطت الطائرة بمطار "هيثرو" الدولي. نزلت الفتاة الشقراء ووضاح إلى جانبها. ثم دخلا قاعة الانتظار. فوجدت عائلتها تترقبهما.كانت قد حدّثتهم من بيروت عن الشاّب الذي أنقذها من الموت . تقدّم منها أفراد عائلتها وعانقوها عناقا طويلا اِمتزجت فيه نشوة الفرحة بلوعة البكاء. كانت كريستينا قد غادرت منذ سنوات .انقطعت أخبارها مذْ وطأت أرض دولة الإسلام في العراق والشام , إذ انتزعوا منها هاتفها الجوال حتى يقطعوا اتصالها بالعالم الخارجي. ذاك دأْبهم مع كل الغرباء . ظنّ أهلها أنّ الموت غيّبها . كانت عودتها حياة جديدة استعادت فيها أسرتها فرحتها واتزانها . عادوا إلى البيت سويا وكانت حكاياتٌ تُسْرد على امتداد الليالي سارداها بطلان خرجا من أرض الظّلام بعدما ظنّا أنْ لا مهرب من الموت إلّا إليه وضاقت عليهما الأرض بما رحُبت.

كانت كريستينا تخرج كل يوم بسيارتها الفاخرة إلى ضواحي لندن حتى تطلع وضاحا على جمال وطنها. كان منبهرا بما يرى. مبان شاهقة تُطاول عنان السماء . أنهج فسيحة تنبعث منها روائح الورد العبقة. تمّر عبرها حافلات ذات طابقين. وفي أقاصيها يتراءى الجبل باذخا بخضرته الناصعة وقد عانقه الضّباب. ياله من مشهد سحريّ ألهب وجدان الفتى العربي ! تذكّر جبل قريته الأجدب ونباته الشوكيّ وكيف كان الغبار يعانقه. وبين غبار وضباب هامت مخيلته.

تعجّب لنظافة الشوارع, لطالما أجال بصره فلم يَلْمَحْ أوراقا تتلاعب بها الرياح أو أعقاب سجائر أو عُلب جعّة كالتي تزْخر بها شوارع وطنه. تملّكه انجذاب شديد إلى هاته الحضارة الراقية . إلى رقيّ الفكر الإنساني فيها , إلى كل تفاصيل الحياة فيها .إسترعى انتباهه محلاّت تجارية يتركها أصحابها ويخرجون في قضاء شؤونهم.ثم يعودون ولا أحد ينفذ إليها ما لم تكن مأهولة . اِستحضر حال ممتلكات الناس في بلاده زمن الخريف العربيّ وما طالها- وهي موصدة ,مُحْكمة الغلْقِ - مِنْ خلع وسرقة . بدا له الفرق جليّا بين الحضارتين .

أيْقن أنْ لا شيْء يعلو على الإنسان في هاته الربوع. إنسانٌ ينعم بالحرية التي وُهبت له بعدما اِسْتيْقَنَتْها نفسه وتمثلها فكره فكان لها أهلا .

بينما كان يتجوّلان بحدائق لندن , لمحت كريستينا رجلا وزوجته تتوسطهما طفلة صغيرة . اِلْتفتَتْ إليه وقالت :

- وضاح : أرأيت تلك العائلة الصغيرة ؟ إنّها عائلة رئيس الوزراء .

اِندهش وتسمّر مكانه ثم قال مستغربا:

- يا للعجب العجاب !رئيس وزراء يجوب البلاد لوحده أين اخْتفى حرّاسُه؟ أين أسْطول السيارات الأمنية التي ترافقه؟ أذْكرُ حينما كنت طالبا إذا صادف مرور موكب سيادة الرئيس تُشلُّ حركة المرور في كل محاور المدينة. يتعطّل صاحب كلّ ذي

شأن. ترْبض الحافلات لساعات ولا يهمّ إنْ تخلّفنا عن الدّرس. أقسم لك أنّ رجال الأمن يقفون مكاتفةً , أحدهم بجانب الآخر والشّمس يشتدّ لهيبُها .المريض قد يقضي نحبه .والحامل التي هي في طريقها إلى المستشفى قد تضع في الطريق. فقط لأنّ موكب سيدي الرئيس سيمّر. ولمْ يمّر بعدُ.

استغربت الفتاة الشقراء قول وضاح وهتفت:

- في وطني لا أحد يعلو فوق القانون وليس بإمكانه تجاوز سلطانه . كم من مسؤول حكومي يتمّ التحقيق معه إذا ما تجاوز الحدّ . تلك هي مقوّمات الحياة في مجتمعنا .

- هكذا هي الأوطان التي تراعي إنسانية الإنسان وتحترم فيه ذاته.

مرّت الأيام متسارعة. ونجح وضاح في الحصول على شغل بإحدى المعاهد العربية بلندن وفي ذات اختصاصه مدّرسا متأنقا ممّا جعله يستعيد سالف حيويته.لطالما توسّلتْ إليه رفيقته الشقراء أنْ يبقى إلى جانبها. فثروة أبيها طائلة غيْرَ أنّه يصدّها. كان يرى منتهى شرف الإنسان في عمله وأنْ لا قيمة له إذا كان عبءا على غيره . كان يعرف أنّ الغربيين يقدّسون عملهم فأجهد النفس فيه.

اِبتسمت الحياة لوضاح. فانغرس فيها بكل ثقله .أحبّه كلُّ من عرفه من الانجليز وغيرهم من الغرباء الذين تحتضنهم لندن بعدما ضاقت بهم أوطانهم . كان تجسيدا مثاليّا للإسلام في

اعتداله ووسطيته . راوده شوق جارف إلى عائلته ووطنه فصارح كريستينا برغبته في العودة . اِهتزت فرحا. فهي سترافقه في رحلة إلى وطنه غير أنّه عبّر عن تحفّظه. ترجّته أن يكشف عن سبب رفضه فأبدى لها تضايقه من مرافقتها إلى عائلته. فهي محافظة تحكمها أعراف وأصول . فوعدها بمرافقته حين تصبح له زوجة .

غضبت الشقراء الحسناء وصرفت عنه وجهها. أمام إصرارها المتزايد اقترح عليها الزواج قبل العودة. فتهلّلتْ أسارير وجهها الطفوليّ. وتلاقت أعينهما في حيرة مذهلة .

عادت بسيارتها مسرعة إلى البيت وعريسها إلى جانبها. أخبرت أفراد أسرتها.فلم يمانعوا لِما رأوه في هذا الشاب المسلم من استقامة واعتدال. كان فكره تنويريا لا ظلاميّا .كان يعيش في لندن بذات المبادئ التي يحملها منذ طفولته . لم يستبدل الطبع بالتّطبع. بلْ ظلّ شابا ملتزما خلوقا رصينا .

أخذتْه في المساء صحبة أفراد عائلتها إلى أرقى محلات الموضة. آثرته على نفسها كما آثرها على نفسه عندما كانا بأرض الموت .اِختارت له من الملابس أفخمها . ثم توجهوا إلى الضاحية الشمالية من لندن حيث توجد محلات اللباس الإسلامي. ازداد إعجابه بها وهي تختار لباسا يتماشى وتقاليده تجنّبا لإحراجه أمام أفراد أسرته.

تمّت مراسم الزواج بعقد القران الشّرعي في مسجد من مساجد لندن .وأقيم الاحتفال في أفخم الفنادق. توافد أهالي

العروس وعلتْ أهازيجهم . كانت فرحة كريستينا لا توصف . بينما هي تراقصه لمحت دمعة تنْحبس في مآقيه. سحبته حيث يجلسان وهمست :

ما خطبك وضاح. أترجّاك ؟

انسكبت دمعته المنحبسة وقال :

- إنّه الفقْد كريستينا .

- لا تعكّرْ صفو فرحتنا عمّا قريب سنكون بين أهلك. وان شئت نعيد هناك احتفالا آخر .

مسحتْ دمعته بمنديلها الحريريّ وتواصلت أجواء الاحتفال بديعة .

٢٩

في الناحية الأخرى من الوطن كان نسق الحياة معدما منحبسا . ظلّت أمّه خديجة ترقب عودة بكرها لسنوات حتى شابت نواصيها. راودتها هواجس وشكوك حول مصيره . بلغ منها الحزن مبلغه . كانت تعلم ما يدور بالبلد المتاخم لحدود الوطن من فوضى عصفت بهدوئه وأذهبت سكينته . توقعت أنّ مكروها أصابه فأصبحت مدمنة على متابعة نشرة الأخبار. تقبع أمام التلفاز شاردة الذهن. تتسارع دقات قلبها. يضيق صدرها ويموت دبيبُ الحياةِ فيها حين يبدأ المذيع بتعديد أسماء القتلى في المواجهات .

تهتزّ جوارحها حين يتناهى إلى مسمعها تكاثر بؤر التسفير إلى سوريا وحكايات الموت المفزعة بتفاصيلها المرعبة . لطمت وجهها حين أذيع خبر ذبح الراعي وإرسال رأسه إلى أمه . أصيبت بحالة إغماء وهلع . كان ابنها عرضة إلى ذات المصير. إنْ لم يكن قد قضى بعدُ في هذا الغياب المقيت. كانت هائمة في دروب الحياة منكسرة الخاطر . جفّت مآقيها بكاء وعويلا.كان أخوه محمد يذرع يوميا إلى المدينة يسأل عمّن يعرفه من أصدقائه. التقى ذات صباح غائم بصديقه فوّاز . ذهب إليه مسرعا علّه يجد عنده ما يطفئ لوعة أمه. فاخبره بأنه قد فقد الاتصال معه عبر شبكة التواصل منذ مدة طويلة. كان يحدّثه عن شوقه إلى جلسة المقهى وعن كلّ ما يشدّه إلى الذكرى المنطبعة بالذاكرة .

أيقن محمد أنّ وضاحا غادر إلى حيث لا يعلم. فازدادت مخاوفه وعاد أدراجه متثاقلا واجما. ما عساه يقول لأمّه؟ وهل ستقوى على تحمل الخبر ؟ هي تعلم أنّ غربة وضاح لنْ تكون إلا ببؤر التوتّر. هكذا كان إحساسها وحدسها . كلُّ أم تحْدِس بأمومتها فتنْكشِفُ لها عوالِم يقْصُرُ عِلْمُنا عن إدْراكِها .

أخبرها محمد بما سمعه فعَلاَ بكاؤها يعمّ أرجاء الوادي فيرتدّ الصدى صادما كما عواء الذئاب. تمدّدت على أرضية البيت. وابنتها زهراء إلى جانبها تخفّف من مصابها وتهمس إليها في رفق :

- حبيبتي يا أماه لا تُعدمي ما تبقّى لنا من أمل. لِمَ البكاء والنّحيب ؟ تفاءلي خيرا. وضاح أخي حادّ الذكاء ما أظنّه يفعلها.أنا استشعر خيرا أماه.

ما إنْ أنهت زهراء همسها حتى تلامست جفون الأم. فدثّرتها وتمدّدت إلى جوارها. عمّت سكينة اللّيل أرجاء الكون. وقطع نوُر القمر ظلمةَ الوهاد والجبال .كانت ليلة مقمرة تألقت فيها السماء وارتدت حلّة الضياء. كانت زهراء تنظر في الفضاء. تمعّنت في القمر وهو كالسّراج المنير . هالها ضوؤه . حوّلت بصرها إلى وجه أمّها فرأتْه على غير عادته وضّاحا وضّاءً .

أغمضت زهراء عينيها . بدأ النّعاس يراودها هالة القمر لازالت تأْسِرُها .نهضت مذعورة على صياح أمها :

- لا تفعلها وضاح. نحن بانتظارك. تراجع. اِبتعد عن النّار والدّخان. واستوت واقفة لتمسكه.جذبتها زهراء من تلابيب ثوبها وقالت بصوت متراخ:

- أمي , أمي إلى أين في هذا الليل ؟

علا صراخها وهي تستغيث :

- ألا تروْن وضّاحا بذروة الجبل يهمّ بإلقاء نفسه في وادي سحيق تتصاعد منه نيران كثيفة ودخان قاتم ؟

هدّأتْ زهراء من روعها والتحق بها محمد يحتضنها وهو يهمس :

- أماه هوّني عليك. لعلّ القادم خير .

اِستغفرت خديجة الله.أتقنت وضوءها ثم توجّهت بالدّعاء إلى خالقها ولا يزال القمر يهْتك ستر الظّلام . تبدّى لها الكون فسيحا. اِنبرت مسبّحة وأيقنت أن رؤياها من الشيطان.

ظلّت على حالها لأشهر وهي لا تعلم عن وضاح خبرا يقينا. تحيا جذوة الأمل فيها كلّ آن وحين ما لم يأتِها نبأ حزين . أمّا محمد فقد تكفّل بتحمّل أعباء العائلة. وراح يشتغل حيثما أتيح شغل. الحياة في نظره لا تتوقف بالفقد أو الغياب. هي مسيرة يكمل فيها اللّاحق ما كان قد بدأه السابق. ورغم انشغاله بمصير أخيه ما استكان وما انطفأت في ذاته رغبة الفعل. هي صفات ورثها عن أبيه. كان يعتقد أنّ أضعف الناس من يسقط أمام العاصفة ولا يعاود النهوض .وأشرف الناس من ينحني للعاصفة ثم يعود ويعلو عليها.

أمّا زهراء فقد رفضت كلَّ من تقدم يطلب يدها وآخرهم كان أحد الفلاحين الأثرياء . كانت تؤثر فرحة انتظار أخيها الغائب. ما عادت تبالي وإنْ تقدم بها العمر .فانشغالها بأمر وضاح أغلى من العمر .

تأقلم وضاح مع نمط الحياة بعاصمة الضباب. فاكتست حياته رونقا جديدا. كانت فاتنته الشقراء قد أنْسته بدفئها ألم الماضي وهول بالمعسكرات. اِهتزت جوارحه طربا عندما أعلمته أنها حامل. فطفق يفكّر في اسم لمولوده المنتظر . سيختار له من الأسماء اسم أبيه "أبو بكر " إحياء لذكراه واعترافا بفضله.

راح وضاح يعدّ العدة ليزور وطنه. شوقه إليه كبير وحنينه إلى العائلة أكبر. تضاعفت نشوته وهو ينتظر مولوده. اِغرورقت عيناه وامتزجت فرحته بالذكرى . تذكّر فرحة أبيه بأخويه محمد وزهراء. وكيف كان يتحسّس بطن زوجته خديجة بيده الغليظة قائلا :

- بظلْمة بطْنك نور الحياة كلُّها . في أحشائك بعضٌ منّي .

كان يخشى عليها من التعب وهي العاملة بالضيعات الفلاحية. فيلزِمها بالراحة في الأشهر الأخيرة من الحمل. طوّحت به الذكرى. واسترجع لحظات مخاض أمّه وهي تتأهب للوضع . هبّ أبوه يذرع المكان. وأحضَرَ الخالة حليمة قابلة القرية منذ عشرات السنين. وكيف ظلّ يجوب المكان جيئة وذهابا ينتظر سماع زغردة النسوة وتعالي روائح البخور الدمشقي العبق في تصاعده إلى عنان السماء ليُنْزِل بندقيته مِنْ على عاتقه. ويطلق أعيرة نارية في الفضاء وقد تهللت أساريره. ولما سأله أحد جيرانه عن سرّ البندقية قال :

- فأْلُ خير يا أبا المدائن : دويّ صوت البندقية يقطع سكون الليل كما سيقطع فعلُ مولودي سكون الدنيا. فيحدث فيها صدى وينغرس شامخا كما النخل العراقي. وينتصب كما جبل قاسيون جاثما على صدر الأرض بكل ثقله فهو لها وتد .

أدرك وضاح مغزى كلام أبيه. وأيقن أنّ حياته بين شعاب الرّيف صغيرا وفي رحاب الجامعة شابا وفي معسكر التنظيم مُغرّرًا به ماهي إلا تجسيد لحكمة أبيه وصدى صوت البندقية.

كما تذكر وضع أمه لأخته زهراء . كانت أمّه تؤثر الذكر على الأنثى. أمّا أبوه فأطلق من بندقيته - على غير عادته - أكثر من بضع رصاصات وقال :

- خديجة: ألا ترين أنّ الدنيا تلد وتحْبل وكذلك الأرض والسماء؟ ؟ ففي الولادة استمرار الحياة وبها يتجسّد الفعل البشري نابضا خلاّقا.

تقدّم منها بخطى الواثق. وأخذ وليدته بين ذراعيه. تأمّل ملامحها. أَذّن في يسراها وأقام في يمناها وهمس قائلا:

- سأسمّيك زهراء . ستزهر بك أيامي وتتزيّن لي دنياي وتتفتح براعمها .كانت فرحته بأختي زهراء لا توصف. فهي لا تفارقه كامل يومه. رحم الله أبي .

٣٠

همّ وضاح بالعودة غير أن كريستينا تتأهب للوضع ممّا اضطره إلى تأجيل الموعد حالما تضع مولودها . كان ينْتظر انتظار أبيه. يغدو ويروح في حدائق لندن الفاتنة. تمدّد فوق العشب متوسّطا شتّى أنواع الزهور. روائح عبقة والسماء تنثر رذاذها محدثا قوس قزح بديعة ألوانه. أيقن أن السّماء تضحك وأن الحياة أقبلت عليه بكلّ ثقلها. كان قد شهد بكاء السّماء عندما مات والده . كانت سماء واجمة مدلهمّة تهمّ أنْ تنطبق على الأرض. وهو الآن يشهد فرحتها وامتدادها ومُطْلق صفائها. السّماءُ تشاركه فرحتَه والأرضُ فهتف:

- الأرضُ أرضِي والسّماء ُسمائِي .

رقّ النسيم. واستمع إلى طائر الحسّون يشدو. تثاقلت جفونه وبدأ النعاس يراوده. كانت كريستينا في المصحة المواجهة للحديقة تتألم وقد أحاط بها طاقم طبّي . غلبت فرحتُها ألمَها. وأذْهبت نشوتُها توجّعَها . مولودها المنتظر سيغيّر مجرى حياتها. ستصير أمّا ينغرس فيها شعور الأمومة . سيحلو وجودها ويعْذب.

اِسْتفاق وضاح على وقع أقدام أبيه وصوته الجبليّ. تقدّم منه بخطى ثابتة. جلس إلى جانبه. ضمّه وقبّله. مسح على شعره الحريريّ كما لو كان صبيا وقال:

- وضاح: كيف ينام مَن يراودُ زوجتَه المخاضُ فلا يستمع إلى أنينها ؟ ألا تذكر كيف كنت أذرع الأرض أجوبها عندما راود أمّكَ المخاض بأخويك محمد وزهراء ؟ ألازلتَ تذكر صوت الرّصاص يدوّي هاتكا ستر الظلام. ورائحة البخور تعمّ المكان . انهض يا وضاح. زوجتك وضعت. وأبوك قدْ بُعِثَ.

استفاق مذعورا: أبي, أبي, خالها لحظات حقيقة ويقين. نظر في كل الاتجاهات. فلمْ ير غير صفاء السماء. نهض مسرعا وهرول إلى المصحة. ألفى صهره وزوجته لدى الباب .عانقاه وباركا له مولوده. هم بالدخول غيرَ أنّ ممّرضة منعته و همست إليه بأدب :

- يُمنع الدخول ضمانا لراحة المرأة . لا يزال الطاقم الطّبّي يتولّى مهامّه إلى حين الاطمئنان الكامل على الأم ووليدها.

تراجع وضاح. وفي مخيلته وضْع المرأة عندما تضع حملها في مستشفيات بلاده. لم يرد الغوص في تفاصيل أكثر تؤلمه. بات متأكدا أنّ الإنسان في الغرب قيمة تُراعى إنسانيته منذ أوّل عهده بالدنيا. وأنّه في بعض أصقاع الكَوْنِ تُمْتهَن إنسانيته وهو وليدٌ أو يافع أو كهل أو شيخ .

بعد يومين رافق وضاح زوجته إلى محلّ إقامته . تأمّل ملامح ابنه. تمعّنها رأى فيه بعضا من أبيه. تضاعفت فرحته. وأضحى يترقّب موعد عودته بفارغ الصبر. سيعود إلى وطنه وهو رجل ذو شأن وكان قد غادر شابا يائسا. سوف يعود ومعه ابن يحْمل اسم أبيه وشقراء فاتنة تأسر جمال كلّ نساء الكون . وكان قد غادر فردا .

الحياة في نظره سيرورة دائبة تكفر بالسكون. تدفع متغيّراتها بعضها بعضا كما الموج يدفع الموج . لا تنْحن لها ولا توْجَلْ إذا ما ضاقت عليك أبعادُها وحاصرك مداها. لا تُنصت إلى نداء الوهن والعجز فيها . بل أصغ إلى صوت الفعل ينغرس في أوصالها. ويدكّ حصونَها دكاّ . لا تكترث وإنْ أوجعك ضربُها واستدام نكوصها. وكُنْ لها كما الماء للنَّار يريدها. كنْ صغيرا يكابر وضعيفا يعاند. فإنْ لم تكن لك نشوة النّصْر فلك شرفُ المكابدة وعزّةُ الثبات.

الحياة وحدها من علّمت وضاحا قيم الوجود وأصول التّواجد فيه. لو وهن عزمه وخمدت ناره لكان لها وقودا. فشرف الإنسان يكْمن في نحته للحظات سعادته من مكامن حزنه. وفي تأصيل كيانه على أنقاض عدمه. ويبقى الكفاح في نظره مشروعا ولو ضد المستحيل فيرغِمه على الإمكان وينتقل بالأشياء من عتمة مكوثها إلى زلزلة حدوثها.

٣١

اِشتاق وضاح إلى رفيقيْ دربه زمن الوجع, فواز وهاشم. فتقصّى أثرهما على شبكة التواصل الاجتماعي "فيسبوك." وقد صار تعامله معه رصينا عقلانيا. لا ينسى أبدا أنها زجّت به في سراديب الظّلام وغياهب المجهول. فأوقعته فريسة لخفافيش الظلام , أعداء النور و صنّاع الحتوف .

كانت فرحته لا توصف وهو يلتقي فوازا . لقد أعاد معه حلقة أخوة وعرفان غيّبها الزمان. أخبره بأنه لا يزال يشتغل في القطاع الخاص بأجر زهيد وأنْ لا خيارله حتى يجد بديلا . حين سأله عن هاشم أجابه بكونه لا يزال عاطلا عن العمل. وأنّه تزوج وأنجب ابنا أسماه "وضاحا "لشعوره بالفقد الجارف إلى رفيق دربه. فقد انتابه خوف على مصيره بانقطاع أخباره. وقد اضطرّه الزواج أن يشتغل نادلا بالمقهى العتيق الذي كانوا يرتادونه زمن وجعهم . فكان ينظر إلى يمينه حيث يقبع كرسي وضاح شاغرا ويقول في حسرة :

- هذا مكانك يا وضاح سيبقى شاغرا حتى يُحدث الله أمرا. لقد غيّبك الدّهر. فلم نعد نعلم ألِرجوعك موعد. أمْ أنّ الموت حال دونه؟

سُرَّ وضاح بالعثور على صديقيه أيّما سرور. وطلب من فواز أنْ يعلم أخاه محمدا أنه بخير وأنّ موعد رجوعه إلى أرض الوطن بات قريبا. كما ترجّاه أن يترك الأمر سرّا بالنسبة إلى هاشم حتى يباغته بذات المكان الذّي كانوا يجلسون به.

من الغد لم يلتحق فوّاز بعمله. وراح يجوب المدينة علّه يرى محمدا شقيق وضاح أو مَنْ يعرفه. الخبر ليس هيّنا .خبر سَيُعيد ترتيب مجريات عائلة اِستبدّ بها اليأس. وتملّكها القنوط. وسكنتها هواجس وشكوك مفزعة.

بينما كان يذرع المكان لمح محمدا برفقة أمّه خديجة وهي تتوكأ عليه. أسرع إليه مناديا :

- محمد ... محمد....اِنتظر .

- تسمّر في مكانه وأمّه مستندة إلى كتفه. اِنتابه خوف شديد. كان يخشى أنْ يكون الخبر متعلّقا بمكروه أصاب وضاحا.

هتف به :

- أبْشِرْ يا محمد . وضاح بخيْرٍ. أياما معدودات ويعود من لندن.

كان للخبر وقع مزلزل على الأمّ وولدها. جلسا على الرصيف يتنفّسان الصّعداء. اِختلطت زغاريد الأم بدموعها . كان المشهد

مؤثّرا يجسّد بعمق معنى الأمومة الصادقة .لحظات من النّشوة الجارفة تتسرّب إلى عمْق كيانهما. فتحرّك فيهما ما أسْكنتْه أصْداء الدنْيا .تجْتثّ حزْنا دفينًا ما كان له أن ينْجلي بعد ردْحٍ من الزمان طالَ.

ضحك محمد وطلب منها الوقوف لتعود الطبيب ثم يرجعان إلى البيت حتى يخبرا زهراء المنشغلة بغياب أخيها ورفضت الزواج لأكثر من مرة. اِزداد ضحك محمد حينما أراد أن يساعدها على الوقوف فنهرته مبتسمة وقالت برقة الأم ودفئها :

- أتراني قدْ هرمت يا ولد ؟ إنّي لا زلت أقوى على الوقوف بنفسي .

- أمّاه: ألمْ تكوني إلى عضدي مذ خرجنا من البيت حتى أرهقْتني؟

- محمد: هَرْوِلْ أمامي إلى البيت. لقد برئت وذهبتْ علّتي وعادت لي ما به تكون الحياةُ حياةً .

عَلَتْ قهقهته. ورافق أمّه إلى حيث بيتهم. وجدا زهراء بساحة البيت. اِستغربت لعودتهما السريعة ولبرْء أمها التي كانت تشكو علّة منذ أيام حتى أرهقها أمْر التفكير فيها. ولمّا علمت بحقيقة الخبر رفعت يدها إلى السّماء. وتذكرت ليلة أرسلت إلى البدر وجهها ترقُبه وقد هتك ستر الظلام. وبدا لها وجه أمها وضّاءً وضاحا . كانت قد توقّعت خيرا تلك الليلة وهو اليوم يتجسّد يقينا فقالت :

- الحمد لله الذي أذهب عنّا الحَزَنْ.

انسابت دموعها. فضمّتْها أمها إلى صدرها وكان الهدوء .

كان وضاح من الناحية الأخرى في عاصمة الضباب يتهيأ إلى العودة . أمّا كريستينا الشقراء الفاتنة فهي تنتظر بمنتهى الشوق. ستزور وطنا غير وطنها. وطن من اختارت أن تحيا بقربه وتنعم به رجلا ليس ككلّ الرجال. آسرتها رصانته ومبادئه التي ما حاد عنها وهو في بلاد الإغراء والجمال. كانت لا تنفكّ تذكر رفْضَه مشاركتها النوم بذات الغرفة ببيروت زمن المحنة والهروب من جحيم الموت. وكيف قطعت معه الفيافي والقفار لوحدهما ولم يجد الشيطان إلى جوارحه منفذا. بلْ كان ينهاها كلّما همت بتقبيله. ويهمس إليها" أنْ ليس بعدُ كريستينا" فتتجمّد القبلة على مخارج شفتيها القانيتين. وترتدّ حسيرة. لقد واجه نهم الأنثى بصبر الرّجال. فهي الآن تُجِلّه وتُفني ذاتها فيه.

أعدّا للسفر عدّته وقصدا مطار" هيثرو" والشوق يحدوهما . منذ سنين ووضاح يتقد شوقا إلى تربة وطنه التي اِنغرس فيها, إلى عائلته وإلى كل ما تطيب به نفسه. سنوات مرّت وما خمد حبه للوطن رغم ما عايشه فيه من فقر وبطالة. يبقى الوطن جزءا من ذات الإنسان. فهو كمجرى الدّم منه .

كان عندما يتذكر مخيمات الشتات وما يعانيه اللاجئون من مآس يزداد يقينا بعزة الانتماء إلى الوطن .كان يذكر حجم الدّمار الذي لحق ببلدان الخريف العربي ولم يهفت. بلْ وازداد اتّقادا

يوما بعد آخر. تصعب السيطرة على الحريق إذا ما عتا. لِذا أصبح تلافيه منذ البدء ضرورة وملاذا .

أما كريستينا فكانت ترغب بلهفة في التعرّف إلى وطن جاد عليها برجل أنساها ضيق الروح في خضمّ بذخ الحياة. تيقنت أنّ الغنى دون روح يزجّ بالذات في الملل والفتور لتفقد لذة الوجود ونكهته. وأيقنت وهي بمعية وضاح أنّ الغنى مع اتقاد جذوة الروح يعيد إليها توازنها المفقود. وعادت صلتها بالعالم بالذات , بالكون , وتهيأ لها من أمرها ما لم يكن من قبلُ . تذكّرت أنه كمْ من غنيٍّ طرحَ حياته طرْح الحيّة جِلْدها بحكم خواء الروح فيه. كلّما عادت بها الذاكرة إلى هموم النّاس تعلقت بوضاح أكثر . لم يكن فقره ولا عوزه ولا بطالته وتخلِّي الفتاة التي أحبّها عنه - بمجّرد أنْ تقدم إليها ثريّ يطلب يدها- دافعا إلى النكوص أو الانتحار. بلْ ازداد بالحياة تعلقا. فأرغمها على السّير في نهْجه . وبساقين ثابتين انغرس في عمق تربتها متحدّيا أديمها " أصْله ثابت وفرعه في السماء".

وصلا باحة المطار. ودخلا قاعة الانتظار . كان الناس في حركة دؤوبة . كلٌّ يحمل حقائبه . رأى كثيرا من الوافدين يستعدّون للعودة إلى أوطانهم . تمعّن في اللوحات الالكترونية. لمح أسماء كلِّ البلدان, عدا بعضها الذي لازال الخريف يعصف بهدوئها وقد اختار مواطنوها إمَّا البقاء بلندن أو تغيير مسارهم إلى وجهة عربية أخرى يتحسّسون فيها تربة العرب وجمال شمس العرب ومقدّسات العرب. تلك هي عزّة الانتماء إلى "خيْر أمّة أخرجت للنّاس ". غير أنّ الناس ما تركوها خير أمّة في

بعض أقاصيها . قلَّ حفاظهم عليها. خرّبوا أوطانهم بأيديهم طلبا للحريّة وما فهموا أن الحريّة والخراب ضِدّان لا يلتقيان وصنوان مختلفان. وما علِموا أنّها تُنْحَتُ بقوّة المنطق لا بمنطق القوّة,بالعقْل في جرْأته لا بالغريزة في انْدفاعها,بالحماسة في اسْتحالتِها فعلا ثابتا بنّاءً لا بالفوضى في تحوّلها إلى قوّة تدْميريّةً هائلة , بالاحْتجاج سلْميّا في وضح النهار , لا بالتسلّل ليلا كما خفافيش الظّلام. فالحريّة نورٌ يكْفر بالظلام. تركوا الثبات. وركبوا التحوّل رغم ذلك ما مات حبّ الوطن فيهم . تراهم رغم جراحاته يسكنهم حبُّ الرحيل إليه.

٣٢

حوّل وضاح بصره الناحية المقابلة رأى الضباب يلفّ المكان. اِرتسمت في ذاكرته مشاهد من الجمال آسرة قطعها نداءٌ بالمطار يحثّ المسافرين على الالتحاق. سمع اسم وطنه فانتابه شعور فخر واعتزاز.

حلّقت الطائرة في الفضاء الرّحب مكتسحة حدود أرضية المطار. هاته الثنائية تخْتزل حياة وضاح "نزولا وصعودا." وهي الثنائية التي سارت وفْقها حياته منذ بدئها . شاءت الأقدار وأحكام الطبيعة أن ينتصب بيته في قرية تقع بين واد سحيق وجبل باذخ. منهما اكتسب ثنائية التّسامي والتّهاوي. منذ كان صبيا بمدرسة القرية لا يتوانى عن اعتلاء الجبل ناظرا إلى ما دونه. يرى نفسه شامخا متجاوزا سكينة الأرض وثباتها . ثم يأخذ في النزول إلى الوادي فيتراءى له أديمُه موتا وقرارُه

فناءً . كان يكره حياة القطيع بين الأودية. وينكر عنه رضاءَه بالدّونيّ. كان يعتقد أنّ من التصقت همّته بالأرض لن يتذوق للعُلوِ لَذّةً. وأيْقنَ أنّ القطيع لا يروم الأعالي فيقْصُر بجهده عنها.

هام في الفضاء , لذة بالفضاء . تراءت له أرض الوطن كأنّها قطعة شطرنج يُدار عليها صراع من أجل الحياة ." جحافل تشْقى وقلّة تنعم ". تمعّن في ساحلها اللازوردي , في خضرتها الناصعة . بدت له جنّة رغم بعض البقع الباهتة .

كان شوْقُهُ يشْتدُّ كلما اقتربت الطائرة وتوضّح المشهد أكثر . ما عاد يكترث بأسئلة زوجته. بْل انْصبّ جُلُّ اهتمامه على لحظات معانقة الوطن بعد سنين من الوجع المقيت والغربة المفنية. حطّت الطائرة. فشعر بدبيب إفاقة يتسرّب إلى مفاصله ويسْتحثّه على الإسراع حتى لكأنّه كان في حلم . سرت الحياة في شرايينه وأوصاله .إنّها مصافحة بين عاشقين بعد هجْر وعتاب ورحلة مضنية في دروب الحياة من شرقها , إلى غربها , إلى أقاصيها. والآن قد حلّت لحظة المصالحة. نزل وهو يردّد "بلادي وإنْ جارت عليّ عزيزة".

غادر المطار. واسْتقلّ سيارة لتبدأ رحلته على الأرض . كان ينظر إلى ابنه وهو يهمس إليه :

- هذه أرض أجدادك بنيّ . بجسدك ذرّاتٌ مِنْ ترابها الطاهر. فوق هذه الأرض ينتصب الزيتون مضيئا بزيْته (وَلوْ لَمْ تمْسَسْهُ نارٌ) في وطني يُغْني الماء عن النارّ. تِلْك البقع الباهتة ستغْمرُها خضرة المروج. ويتسرّب إليها الماء المعين. وذاك النّبات

الشّوكي في العمْق وبعْض الأطراف ستلْفظه الأرض. ويجرفه السّيل. ويَنْبجس عوضه ريْحانٌ وأقحوان يُحدّثان في صمْت عن جمال الكون وسِحره .وستنْبعِثُ من بيْن هاته الصخور سنابل القَمح مسبّحة بالجهْد الإنساني الخلاّق .ستهْجُرُ الغرْبان فضاءنا وتشِعُّ سماؤنا بنور مبين فلنْ يقْدِرَ عن العيْش في الضّياء من تسرْبل بالعتمة والغموض .

أمّا كريستينا فكانت أصفى لحظات وجودها . لقد سئمت نمط الحياة في وطنها وما يسوده من هرج ومرج وضوضاء صاخبة. فراحت تنشد مكانا تنعم فيه بالسكينة والهدوء . آسرتْها المناظر الخلاّبة على امتداد الطريق. وبدت لها كأنها لوحات زيتية أتقن الرسام تفنّنه فيها. فأخرجها كأبدع ما يكون .

حطّا الرّحال بمدينته. هاله ما لحقها من تغيرات عمارات شاهقة تتوزّع هنا وهناك. حدائق غناءة , كأنّها تزينت له فهلّلت لحلوله.

ثم بالتنسيق مع فواز تم تنظيم لقاء بالمقهى العتيق. كانت فرحة هاشم كبيرة .جلسوا فحدّثوا حديثَ الشّوق والأنس. كذا همْ الأصفياء من الخِلاّن لا يغيّرهم زمن ولا منصب ولا غربة ولا دهر مهما قسا وعسُر. بلْ يظلّون مسترسلين إلى الألفة والاتّصالِ كأنّ بيْنهم وبين العرفان أرْحام .

أقْسم هاشم أن يستضيف خِلاّنَهُ رغم اعتراض وضاح إذْ أنه في أشدّ الشوق إلى عائلته .رافقوه إلى بيته المتواضع الذي كان يقبع في أطراف المدينة. كان قد اشترى خروفا منذ أيام انتظارا

لعيد الاضحى. قام ينْحره احتفاء بصديقه. أجالت كريستينا بصرها. بدا لها البيت متواضعا بكلّ ما يحتويه. ورأت طفلا يلعب بالتراب في الناحية الأخرى ووجهه إلى الشمس يرنو . كان وضاح يعرف أنّ هذا الصبيّ يُدْعى وضّاحا. ضمّه إليه. وقبّله وشكر لأبيه رغبته في حفظ الذاكرة اعترافا بخصوصيّة زمن له على الذات وقع خاص .

أمّا الشقراء الأنجليزية فهالها ما رأت .هاشم رغم فقره وضيق حاله يصرُّ على إكرام نزلائه . زاد يقينها بأنَّ عُرى التواصل وتوقّد العواطف في الشرق أجلّ وأوضح منها في الغرب . ففي مجتمعها اللندني لا يعرف الجار جاره إلا برقم الشقة .فهم كائنات مبهمة مرقّمة .ماهم إلاّ أرقام على هامش الحياة ليكون خمود الرّوح وغربتها.

واصلا سيرهما إلى بيته في قريته النائية . كان وهو يسير بسيارته يتمعّن في كل مظاهر الطبيعة من هضاب ومنحدرات. بدا له المكان بديعا خلاقا . ما إنْ أشرف على مسقط رأسه حتى رأى أمّه خديجة وأخويه محمدا وزهراء متحلّقين وقطيع الأغنام يرتع على مرمى العين. لمّا رأوه زعموا أنه حلم. فما صدّقوا لواحظهم . فرحة عارمة عمّت المكان. توافد الجيران على تفرّقهم لمّا سمعوا . كانت خديجة تروح وتغدو بين الزائرين مرحبة مهلّلة. أحست بأنَّ حياتها عادت إلى أوج عنفوانها ومطلق بهجتها. فما عادت تسكن جسدها علّة. وأحسّت أنّ زمانها فاض عنها. أو كأنّها دقّتْ عنقه ففقد حدوده وردهاته.

واسْتحال سرمدا لا يعْتريه زوال وأبدًا عصيّا عن الفناء. تلك هي الأم تحيا بحياة صغارها وتهرم لهرمهم وتموت كمدا لفقدهم.

شهدت كريستينا أول شروق شمس بالقرية الجبليّة . نهضت منذ ساعات الفجر الأولى تودّ رؤية الشّمس وقد انفصلت عن ضباب لندن فما عاد يحجبها. انْشدّتْ إلى هدوء القرية المطبق. فلا حركة تقطع وتيرة السكون . تناهى إلى مسمعها نقيق الضفادع بالوادي المحاذي وغثاء الخرفان في سفْح الجبل تبغي الكلأ أمّا السماء فلا سحب فيها . تأملتها تأمُّلَ النّاسكين. رأت فيها منتهى الصّفاء والشفافية . سماء لندن تلفّها الغيوم والضّباب على امتداد السنة فهي اليوم تنعم بجمال الكون العذري قبْل أنْ تُدنّسه يد البشريّة.

كم أعجبتها حياة القرويين ببساطتهم وطهارتهم وإقبالهم على الحياة هازئين بصعوباتها , غير عابئين بأهوالها .نفوسهم حبلى بالأماني وأجسادهم ماثلة بثقلها فوْق الأرض حبّا في الأرض .تراهم يهبّون مع الفجر لعلْمهم كونه -"ساعة جِدِّ تكْره المزاح-" إلى السّفوح والذّرى شعْثا غُبْرا ونداء الحياة فيهم يصْدح مُكْتسحًا حدود المكان .

حلّ الضحى. فأخذها وضاح في جولة إلى الأماكن التي كان يرتادها. أمّا ولده أبو بكر فاستأثرت به الأم خديجة لنفسها . نزلا الوادي السحيق. ثم صعدا إلى قمّة الجبل. فهاله ما رأى "زهرة يانعة تتضوّع طيبا تنْبعث مِن بيْن الصّخور الصمّاء إلى الأفق. وعلى رحيقها قطرات من النّدى" . التفت إليها وقال

باسما :

- كريستينا : بين هذين المكانين قصّة حياة ونداء وجود. قوّة تجذبك إلى القرار وأخرى تغريك بالصّعود والتسامي وبينهما كّر وفرّ وأهوالٌ ومآسٍ لنْ يقدر على تحمّلها سوى الشّجاع الأبيِّ ولنْ يثبت في رحابها غيرُ الفاعلِ المريدِ.

مكثا بذروة الجبل لردهات وَوُجوههما إلى المشرق يرْقُبانِ النور المنبعث منذ آلاف السّنين. وإلى المغْرِبِ ظهورُهُما يستهزئان بفلسفة الغروب ولسان حالهما يقول :

- مَنْ كانت قِبْلَتُهُ المشرق فما عاد يخشى للغروب حُلُولا.

ثم توجّها إلى المقبرة حيث يجثو أبوه منذ سنين. تليا من الكتاب فاتحتَه. ورفع أيديهما بالدعاء. ثم قال ووجهه إلى وجهها:

- في هذا القبر ينام مَنْ كان لي سندا منذ نشأتي حتى تخرّجي. أفاض عليّ من روحه. ونفث فيّ من عزمه .وعلّمني من مبادئ الحياة ما به صِرْت إنسانا. أدركه الموت ولمّا ير من الحياة وجهها المشرق .ولمّا أشْرقت اليوم بنورها غيّبه ظلامُها.

تنهّد والدّمع من العين تسفحه. ثم أردف :

- رحم الله أبي لقد يسّر لي بعسْر حياته سبيل وجودي.

اِنشدّت كريستينا إلى صمت الموتى ووحشة المقابر. مكثت جالسة تتأمل هذا الخلاء الممتدّ .جذبها وضّاح من يدها واتّجها

إلى البيت . قطف لها من الإكليل الجبليّ والزعتر والريحان. تضوّعت يدها طيبا حتى لكأنّها المسك. ثم قالت :

- من قساوة الجبال وعتمة الأودية تنبجس الحياة حبلى. ومِنْ بين الصخور الوعرة الرّابضة على كفّ الأرض ينبعث الفعل الإنساني خلّاقا مدويّا .

مكثا من الوقت أغلبه. ولم يستفيقا إلّا على نداء زهراء تدعوهما إلى الأكل. أمّا ابنهما فقد وجد في حضن جدته خديجة دفئا غير معهود فما بكى ولا صاح . نام وخدّه الأيمن إلى قلبها وكأنّه يستمد نبض الحياة منه متدفقا كما السّيل العرم.

٣٣

أصرّت خديجة على إقامة حفل الختان في بيتها . حضر أهلُ القرية وصديقه هاشم. أمّا فواز فانتهزها فرصة يطلب فيها يد زهراء من عائلتها وقد التأم شملها .

في أجواء من الفرحة عارمة قررت كريستينا إقامة شركة للصّناعات الغذائية التحويلية في القرية. يتولّى محمد الإشراف عليها. وغير بعيد عنها قررت إنشاء أكاديمية تعليمية بالمدينة تُسْنَد مهمة الإشراف فيها إلى صديقي وضاح هاشم وفوّاز اعترافا بفضْلهما. يشتغل بها مدرّسا كلّ متميّز لم يجد إلى الشغل سبيلا .

ذاك هو وضاح. وتلك حكايته مع نداء الحياة في تأرجحها بين سندان التحدي - فعلا منغرسا في حرمة العالم - ومطرقة

خريف عربي بجراحاته ووجعه . لم تعدم إرادة الذات فيه. بل أطلقتها من عقالها فصنع ربيعه الخاص . لم يسْتكن وهو صبيّ يتحسّس طريق الحياة. ولا وهو شاب ينوء بأعباء الوجود . لم يخُنْ نداء الحياة وصداها وهو في جحيم الموت الزّؤام بدولة الإسلام في العراق والشام. بل بقي حبّه للوطن متقدا لم تنطفئ شعلته

خرج من الوطن غاضبا معاتبا وعاد إليه مصالحا .لأنه آمن كلّ الإيمان أنّ الوطن جزء من كيان الإنسان. إنْ أنت فرّطت فيه وتآمرت كان التهاوي والزّيف والخسران. وفقدْتَ ما به تكون إنسانا.

اِنطلقت الأشغال بالمصنع . حركة دؤوبة تعمّ المكان . تحلّق سكان القرية يباركون هذا الانجاز . هتف العم مبروك:

- فاتحة خير وبركة. الفضل يعود إليك يا وضاح .

ردّ في هدوئه المعهود وبصره إلى الأفق يتطلّع :

- الفضل لله وحده :هاته القرية علّمتني بقساوتها ما به تمكّنت من نحت مسار حياتي. ثم لوّح بيده وهو يغادر :

- كان الله في عونكم .

توجّه إلى المدينة والى جانبه كريستينا حتى يواكبا انطلاق أشغال تشييد أكاديمية التعليم. حشْدٌ من الناس كبير. هتافات تعالت تعمّ المكان فرحا. سيفتح هذا الانجاز باب الأمل لعديد

العاطلين وينتشلهم ممّا يمكن أن يصيبهم فوضّاح لا يزال يذكر معاناة الرحلة إلى بلاد صنع الموت .

كان فواز وهاشم يشرفان على اللّبنات الأولى لمشروع ستزهو به لهما الحياة. تقدم منهما وضاح وقال بصوت جهوريّ يتردّد صداه فيرْتدّ سكينة ورضا:

- اجعلا قبلته المشرق. فمَا وهن ولا خمد تعليم قبلته المشرق والنّور لا يهفت.

صاح فواز بمهندس المشروع :

- اجعل قبلة معهدنا صْوب المَشْرِقِ وإلَى الغرْبِ نوافذه.

-

-

-